النفحة المسكية في السفارة التركية

تأليف

علي بن محمد التمكروتي

تقديم وتحقيق

عبد اللطيف الشاذلي



المطبعة الملكية . الرباط
1423هـ - 2002م

النفحة المسكية
في السفارة التركية

لعلي بن محمد التمگروتي

تقديم وتحقيق
عبد اللطيف الشادلي

المؤلف : علي بن محمد التمگروتي

ولد علي بن محمد التمگروتي سنة 941/1534 [1] ولا نعرف شيئا كثيرا عن نشأته وظروف تعليمه ، سوى أنه تربى في بيت علم وصلاح : فقد كان لجده علي بن محمد شهرة كبيرة في منطقة درعة ، وكان والده محمد رجل صلاح ، شيخه في الطريق عبد العزيز القسنطيني [2] وكان عمه عبد الله بن علي من سَنَنِ أهل التصوف ، رحل إلى تونس وصاحب فيها شيخها عبد العزيز بن خليف القسنطيني ولازمه إلى وفاته بتونس [3] ، وكان أخوه محمد [4] عالما أستاذا للأمراء السعديين وإماما لجامع المشور بفاس إلى وفاته بها سنة 988/1580 ، وسبق أن وجهه السلطان السعدي عبد الله الغالب سفيرا إلى اصطنبول [5] وذكره التمگروتي مشيرا إلى أنه سفر قبله عند الأتراك ، وعندما مر بجزيرة گلبُلِي تذكر قولة أخيه عنها :"لا يصلها إلا من بُلِي" [6] أما أخوه الثاني ، الحسن ، فقد كان رجلا فاضلا متقشفا فقيها نحوياً معقوليا ، أخذ عن عدد من علماء فاس مثل أحمد المنجور [7] .

---

1) أورد التمگروتي في آخر كتابه "أبياتا ركيكة" حسب تعبيره كان يسلي نفسه بنظمها خلال رحلته ويضمنها خواطره ، ومن ضمنها بيت يقول فيه : فإنني وديعة أودعها العبد التقي . وجاء في طرة الصفحة 58 من النسخة م 2 :" تركني وديعة لله سبحانه وأنا ابن سبعة أشهر سنة 941 . انتهى من خط مؤلفها رحمه الله ونفعنا به ." ولا ندري معتمد من جعل ولادته سنة 967 /1560 ، انظر: القادري ، محمد بن الطيب ، التقاط الدرر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، ص:23 ـ هـ : 2 .

2) ابن عسكر ، دوحة ، 93 .

3) أشار إليه التمگروتي في رحلته ، ص:32 من المخطوط م أ .

4) ترجم له : الفشتالي ، مناهل ، م خ ح ، رقم 274 ، ص:219 ـ المقري ، روضة الآس، ص:35 ـ ابن القاضي ، جذوة ،207 ، درة عند رقم 655 .

5) ابن عسكر ، دوحة ، 69 .

6) التمگروتي ، نفحة ، 85 من م .

7) ابن القاضي ، درة الحجال ، 1:242،رقم 362 ، المنتقى المقصور ، ص:792 .

هكذا تربى علي وسط عائلة متصفة بالصلاح متحلية بالعلم ، لها صلات بالسلاطين السعديين ، وعاش في كنف والده الشيخ محمد البكري ، وتعلم في زاويته هو وأخوه مَحمد بن محمد ، وأخذ عن مشايخ منطقة درعة، ثم تصدى للتدريس في الزاوية .

توفي علي التمگروتي سنة 1003/1594 ودفن بروضة القاضي عياض بمراكش .

لا ترتبط شهرة التمگروتي بعلمه ولا بسفارته لدى السلطان العثماني، بقدر ما ترتبط بالكتاب الذي تركه مسجِّلا فيه وصف رحلته ، وهو كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية .

كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية

ورد أمر السلطان أحمد المنصور الذهبي على التمكروتي ، وهو في بلدته ، بالورود عليه ، والسلطان إذّاك بفاس. فغادر بلدته ضحوة يوم السبت 1 جمادى الأولى سنة 997 (18 مارس 1589) ووصل إلى سجلماسة يوم الأربعاء الموالي ، ومنها إلى فاس التي دخلها يوم الثلاثاء 25 جمادى الأولى (11 أبريل 1589) حيث كلفه السلطان، هو والكاتب محمد بن علي الفشتالي والكاتب محمد بن علي بن إبى القاسم بحمل هديته وتبليغ رسالته إلى السلطان العثماني . فغادر فاس يوم السبت 20 جمادي الثانية 997 (6 مايه 1589) واتجه إلى تطوان منتظرا وصول سفينة من الجزائر تحمله ومرافقيه إلى القسطنطينية. وأقام في تطوان ثلاثة أشهر (رجب وشعبان ورمضان) .

انطلقت السفينة من تطوان يوم 1 شوال 997 (13 غشت 1589) ورست في ترغة ثم وَاصَلَتْ سيرها مارة ببادس وطرف فورك وجزر كبدانة فهنين حيث رست . استمرت الرحلة مارة بوهران ومستغانم وتنس إلى أن رست في شرشال ، وكانت المحطة الموالية في الجزائر التي وصلت إليها السفينة يوم الاثنين 10 شوال 997 (22 غشت 1589) وبعد أن قضى التمكروتي بالجزائر عشرين يوما انطلقت السفينة إلى حصن دلس حيث رست ، ومنه إلى بجاية التي غادرتها يوم الأربعاء 3 ذي القعدة 997 (13 شتنبر 1589) مارة بمراسي جيجل والقصب والقل لتصل إلى بونة حيث أقامت البعثة يومين لتنطلق إلى المحطة الموالية في بنزرت ومنها إلى تونس فرأس أدار فقليبية فسوسة فالمنستير فالمهدية فقابس فجزيرة جربة ومنها إلى طرابلس التي وصلت إليها يوم الجمعة 26 ذي القعدة 997 (6 أكتوبر 1589). دامت إقامة التمكروتي في طرابلس

شهرا واثني عشر يوما وغادرها يوم السبت 9 محرم 998 (18 نونبر1589) متجها نحو القسطنطينية التي وصل إليها يوم السبت 16محرم 998 (25 نونبر 1589) .

أقام التمگروتي في القسطنطينية حوالي ثمانية أشهر ، أدى في بدايتها مهمته السفارية ، حيث استقبله السلطان مراد العثماني هو ومرافقيه ، وسَلَّموهُ رسائلَ أحْمَد المنصُور وهَديتَه . وغادرَ القسطنطينية يوم 7 شعبان 998 (11 يونيه 1590) متجها إلى طرابلس التي وصل إليها يوم 6 رمضان 998 (9 يوليوز 1590) ليغادرها يوم 15 رمضان 998 (18 يوليوز 1590) مارا بجربة فصفاقس فمنستير فسوسة فبنزرت فطبرقة فبلد العناب (بونة) فبجاية فالجزائر التي وصل إليها يوم السبت 8 ذي القعدة 998 (8 شتنبر 1590) وقضى بها حوالي أربعة أشهر ليغادرها يوم 7 محرم 999 (5 نونبر 1590) عائدا إلى المغرب ، حيث وصل إلى مدينة تطوان يوم 11 محرم 999 (9 نونبر 1590) وأقام بها إلى يوم 1 صفر 999 (29 نونبر 1590) حيث غادرها إلى مراكش التي وصل إليها يوم 10 ربيع الثاني 999 (5 فبراير 1591) يرافقه وفد تركي يحمل رسالة السلطان مراد إلى أحمد المنصور الذهبي. وأقام التمگروتي بمراكش إلى أواخر جمادى الأولى 999 (أواخر مارس 1591) وغادرها إلى تامگروت التي وصل إليها يوم 1 جمادى الثانية 999 (27 مارس 1591).

يرى دو كاستر أن التمگروتي حرر رحلته بعد عودته من مهمته في مراكش ، وأنه فعل ذلك ، فيما يغلب على ظنه ، بطلب من السلطان أحمد المنصور الذهبي كتقرير عن المهمة التي كلفه بها[1] .

---

1) De Castries, En-Nafha El-Miskiaya.Introduction, p : IV

ونحن نرى أن السمة المميزة لـ"لإدارة" المغربية في العصر الذي نتحدث عنه هي جنوحها إلى الشفوي وتجافي المكتوب ، خصوصا في مجال التعامل مع الإمبراطورية العثمانية . ومما يلاحظ من خلال قراءة النفحة أن التمگروتي اختصر حديثه عن مهمته لدى السلطان العثماني في بضعة أسطر حينما كتب عن مقابلة السلطان "ثم في اليوم الثالث من إقامتنا في المنزل الذي أُعدَّ لنا ، أُذِنَ لنا في الدخول على السلطان ، فدخلنا عليه في إيوانه"[1] أو حينما كَتب عن توديعه له "فلما حان وقت السفر، أذِنَ لنا في الدخول على السلطان للوداع .فدخلنا في القبة التي سلمنا عليه يوم ورودنا على العادة [..] فسلمنا عليه وخرجنا [..] وناولنا أجوبة كُتُبِ الخليفة السلطان مولانا أحمد الشريف الحسني، وهدية عظيمة مكافأة ، وبعثوا معنا رسولين منهم"[2].

وعليه ، فإن النفحة أبعد ما تكون عن تقرير عن مهمة رسمية ، بل هي عمل مستقل عن المهمة ، استلهم فيه التمگروتي نموذج الرحالة الذين تأثر بهم ، وخصوصا خالد البلوي . وكان تحريره لها بعد عودته من مهمته، اعتمادا على تقاييد ضبط فيها توالي المحطات وتواريخها، معتمدا ـ خلال التحرير ـ على خمسة مصادر هي رحلة البلوي والعقد الفريد لابن عبد ربه ورحلة ابن بطوطة وكتاب البكري ومدارك القاضي عياض ، مما سنفصل الحديث عنه وشيكا .

يكتب التمگروتي بأسلوب واضح عندما يكون هدفه الوصف ؛ فحديثه عن كل المراسي التي حط بها الرحال حديث مركز واضح بعيد عن أي تزويق أو تنميق ، ونموذج ذلك وصفه الدقيق الواضح لمدينة القسطنطينية ببناياتها وأزقتها وتجارتها وعاداتها ونظام الحكم

1) نفحة ، ص 105 من النسخة م 1 .

2) نفحة ، ص 109 من م 1 .

والتسيير فيها. إلا أنه كان يحاول استكمال الصورة التي يرسمها لبعض المراسي بجلب ما يتمكن من جلبه من أوصاف سابقة لعهده ، ليقارن بين وضعية المدينة عند واصفيها ممن سبقوه من الرحالة وبين ما آل إليه أمرها عندما مرَّ بها . فعندما وصل التمكروتي إلى وهران وصفها ثم أورد وصف ابن عبد ربه لها وما قال عنها البكري . وتكرر نفس النمط في مستغانم والجزائر وبجاية ... وفي معظم المراسي التي توقف بها . ويذكر ضمن ما يذكر مزاراتها ورجالها المرموقين علما أو صلاحا موتى أو أحياء ، مضمنا ذلك كلام من سبقه عنهم . إلا أن تأثره بخالد البلوي وإعجابه به جعله يغلو من وجهين ؛ أولهما الإكثار من النقل عنه ، خصوصا في ذكر من لقيهم البلوي من رجال تونس ، وهو نقل استغرق ما يفوق العشرين صفحة من المخطوط المعتمد.وثاني وجوه الغلو في التأثر بطريقة كتابة البلوي والإعجاب بأسلوبه أن التمكروتي حاول النسج على منواله في بعض مقاطع النفحة ، خصوصا عند وصف احتفال أحمد المنصور الذهبي بعيد المولد النبوي ، أو لمراسم تجديد البيعة له[1] بل إن التمكروتي - وعيا أو دونه - ينقل بالحرف أسلوب البلوي ، دون أن يحيل عليه في مقطعين طويلين ؛ فهو ، في وصفه لعلاقة الأخوة التي ربطت بينه وبين محمد بن علي الفشتالي خلال سفرهما ، يورد نفس كلام البلوي في حديثه عن أبي العباس أحمد النقاوسي[2] ونلاحظ نفس التطابق في الكلام عند حديث التمكروتي عن شرف السعديين، حيث يورد نفس كلام البلوي وهو يتحدث عن محمد بن يحيى الحسني[3] .

---

1) صفحات 138 إلى 146 من هذه الطبعة .

2) تقارن ص 57 بصفحة 147 .

3) تقارن ص 117 و132 .

تاريخ النفحة

عاد التمگروتي إلى بلدته بوادي درعة أول جمادى الثانية سنة 999 (27 مارس 1591) وتوفي بمراكش سنة 1003 (1594) فيكون تاريخ انتهائه من تأليف النفحة بين هذين التاريخين . بينما يعود تاريخ النسختين اللتين تمكنا من الوقوف عليهما إلى 29 صفر 1128 (23 فبراير 1716) .

ويشير دوكاستر إلى أن الخزانة العامة بالرباط اقتنت في فبراير 1928 نسخة حديثة يظهر أن تاريخ نسخها يعود إلى سنة 1900 عن نسخة أخرى في ملك عبد الحي الكتاني[1] . كما يذكر محمد المختار السوسي أنه وقف على مختصر للنفحة في واحد وعشرين صفحة ، تاريخ نسخها 9 رمضان 1136 (1 يونيه 1724) في خزانة المدعو علي بن الطاهر[2] .

فأين توجد النسخة الأم وما مآل النسخ التي لا شك أنها انتسخت عنها خلال ما يفوق القرن وهو الفاصل بين وفاة التمگروتي وتاريخ أقدم نسخة متوفرة. لا شك أن مزيدا من التنقيب سيمكن من الوقوف على نسخ أخرى من هذا الكتاب .

---

1) De Castries, Introduction, p : XVI .

2) أورده مكامان ، الرحلات المغربية ، 176.

ظلت النفحة متداولة بين المؤرخين ، ونقل عنها الإفراني في النزهة في ثلاثة مواضع[1] وفي سنة 1929 قام المستعرب الفرنسي الكونت هنري دو كاستر بترجمة بعض فصولها إلى اللغة الفرنسية[2] كما نشر نصها العربي مطبوعا على الحجر ، بدون تاريخ . وفي سنة 1985 أصدر سليمان الصيد ، اعتمادا على نسخة دو كاستر الحجرية ، طبعة جديدة للنفحة ، عن دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع بتونس .

---

1) في وصف تونس (ص 122) وقصر المنصور المتنقل (ص199) والاحتفال بعيد المولد (ص 230) .

2) En-Nafha El-Miskiya Fi-S-Sifara Et-Tourkiya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589-1591, par Abou-l-Hassan Ali ben Mohammed ET-Tamagrouti.Traduite et annotée par Le Lieutenant-Colonel Henry De Castries.Publications de la Section Historique du Maroc. Paris. Paul Guethner. 1929.

عملنا في التحقيق

حاولنا قدر الإمكان إخراج نص النفحة أقرب ما يكون إلى الأصل الذي حرره التمكروتي . وقد لاحظنا أن دو كاستر تحامل في ترجمة النفحة تحاملا كبيرا على التمكروتي فلاحظ عليه كثرة نقوله وطول استشهاداته ، وقرر أن يضرب صفحا عن كل ما يراه غير داخل في اهتمامات المؤرخ وألا ينقله إلى النص الفرنسي . بل إنه لم يقم بنشر النص العربي كاملا . فقد جاء في النسخة المعتمدة (ص 205) ما يلي: "ونذكر إن شاء الله تعالى عقب هذا نبذة من حكايات وأبيات أدبية وغزلية ووعظية وغير ذلك مما تلقيناه أوأخذناه من بعض من لقيناه في هذه السفرة المباركة وغيرهم ، ومما يشرح الخاطر وينزه الناظر وتحسن به المناظرة وتطيب به المجالسة والمذاكرة " وتسترسل هذه النبذة إلى ص 332 من المخطوط . كما أن الطبعة التي أصدر سليمان الصيد تطابق نسخة دو كاستر الحجرية ولا تحتوي على القسم الأخير من النفحة . وقد ترددنا بين نشر هذه "النبذة" احتراما لاختيار المؤلف ، وبين حذفها من نص النفحة . واستقر رأينا - والكتاب جاهز للطبع - على حذفها ، فهي تثقل النص بأكثر من مئة صفحة ولا تقدم أية إفادة تاريخية مباشرة ؛ فالنبذة مجموعة أشعار وأخبار وطرائف ومستملحات من النوع المتداول في كثير من كتب الأدب العربي . إلا أننا سنصدر "النبذة" في بحث مستقل ، نظرا لما يمكن أن تفيد به من التعرف على عقلية التمكروتي باعتباره فقيها مغربيا بدويا من أهل القرن العاشر الهجري ، وتتبع اهتماماته وميوله الأدبية ، ودواعي اختياره لما اختار من تلك النقول والأخبار .

اعتمدنا إخراج نص النفحة أقرب ما يكون إلى ما كتبه التمكروتي على وسيلتين :

الأولى : مقابلة النسخ التي تمكنا من الوقوف عليها ، وهي :

* نسخة الخزانة العامة بالرباط، رقمها 795 د ، صفحاتها 332 ، مسطرتها 17 ، مقاسها 120/170 . خط مغربي جميل واضح مقروء . كان الفراغ من نسخها بعد العصر من يوم الأحد التاسع والعشرون صفر عام 1128 على يد كاتبها محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي ثم البكري نسبا الدرعي دارا ومنشأ .

رمزها في التحقيق والمقابلة م 1 .

* نسخة الخزانة العامة بالرباط ، رقمها 2829 ك ، صفحاتها 188 ، مسطرتها 25 ، مقاسها 125/180 خط مغربي بدوي ، متأثرة في صفحاتها الأولى تأثرا خفيفا بالرطوبة . كان الفراغ من نسخها بعد العصر من يوم الأحد التاسع والعشرون صفر عام 1128 على يد كاتبها محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي ثم البكري نسبا الدرعي دارا ومنشأ .

رمزها م 2 .

ولا نعلم وجه تطابق تاريخ النسخ واسم الناسخ في النسختين معا ، مع اختلاف الخطين فيهما تماما .

* نسخة دوكاستر ، وهي المطبوعة على الحجر دون تاريخ . ويغلب على الظن أنها أخذت من النسخة م 1.

رمزها م 3 .

* النسخة التي قدم لها وعلق عليها سليمان الصيد ، الصادرة عن دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع بتونس سنة 1985 . وهي مأخوذة من نسخة دوكاستر.

رمزها م 4 .

* * *

لقد توخينا إخراج نص سهل التناول متيسر الفهم ، فعمدنا إلى التعريف بما يتخلله من أسماء الرجال والأماكن ، دون إثقال للمتن ولا إطالة في التعْريف ، مُكتفينَ بتَبْيين الاسْم ، مُحيلين علَى أقْرب المصادر المتوسعة في التعريف به . واقتناعا منا بأن العمل العلمي بنيان يكمل بعضه بعضا ، فقد استفدنا من العمل الذي أنجزه دوكاستر في ترجمة النفحة إلى اللغة الفرنسية ، واستعملنا ، كلما رأينا أن في ذلك فائدة للقارئ، شروحه وتعليقاته المضمنة في هوامشه وميزناها بحرف "ك" . كما استعملنا ، عند الاقتضاء، تعاليق سليمان الصيد وميزناها بدورها بحرف "ص" .

وتسهيلا للإخراج ، عمدنا إلى تفصيل النفحة إلى فصول هي :

- من درعة إلى تطوان
- من تطوان إلى تونس
- من تونس إلى طرابلس
- من طرابلس إلى القسطنطينية
- من القسطنطينية إلى تطوان
- من تطوان إلى درعة

وختمنا عملنا بوضع فهارس الكتاب مشتملة على أسماء الرجال والأماكن والمؤلفات وبعض التعابير التقنية .

مصادر ترجمة التمكروتي

- الإفراني ، محمد الصغير
صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر
الطبعة الحجرية ، ص : 106.

- بروكلمان ، كارل
ملحق ، 2 : 680.

- البغدادي ، الباباني ، إسماعيل باشا
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، 2 : 671.

- التازي ، عبد الهادي
التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم
8 : 59.

- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر
معلمة المغرب ،7 : 2191 .

- حجي ، محمد
الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين
2 : 548.

- الحضيگي ، محمد بن أحمد
طبقات ، 2 : 248.

- الخفاجي ، أحمد بن محمد
ريحانة الألبا

- الزِّركلي ، خير الدين
الأعلام ، 5 : 12.

- السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، 5 : 330.

- سودة(ابن -) عبد السلام
دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، 2 : 367.

- القادري ، محمد بن الطيب
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ،1 : 49.
التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار المائة الحادية والثانية عشر ، ص : 23.

- القاضي (ابن -) أحمد
المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ،ص:790 .

- كراشوفسكي
تاريخ الأدب الجغرافي،1:459.

- گنون ، عبد الله
النبوغ المغربي ، 1:320.

- ليفي - بروفنصال ، إفارست
مؤرخو الشرفاء ، ترجمة عبد القادر الخلادي ، ص:82.

- المراكشي ، العباس بن إبراهيم
الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، 9:195.

- مگامان ، محمد
الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، 176 .

- المكناسي ، أحمد
  أهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب ، ص : 138.

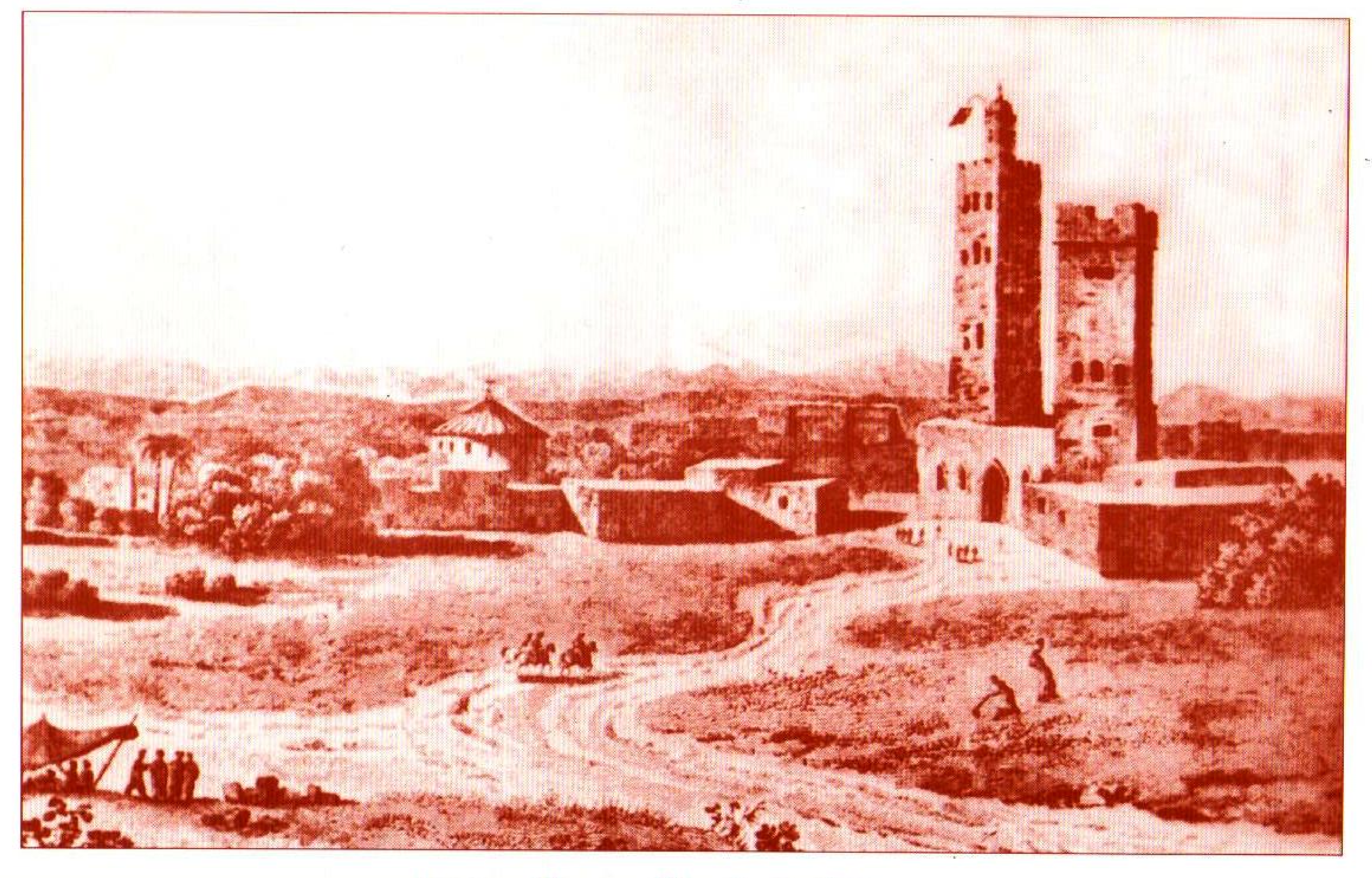
- المنوني محمد
  حضارة واد درعة
  المصادر العربية لتاريخ المغرب ، 1 : 138.
  ملامح العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس
  مجلة المناهل ، عدد 6 ، ص : 240.

- الموقت (ابن ـ) محمد بن محمد
  السعادة الأبدية ، ص : 45.

- الناصري ، محمد المكي
  الدرر المرصعة ، ص : 246.



السلطان أحمد المنصور الذهبي



صومعة الكتبية والبرج الذي يعتبر اليوم مفقودا

رسم أنجزه علي باي العباسي سنة 1803م (عن كتاب : مراجع الذاكرة "مراكش")

باسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية

تأليف الإمام العلامة المدرس الفهامة أبي الحسن سيدي علي بن الشيخ المحترم المبجل المعظم أبي عبد الله سيدي محمد ابن شيخ الإسلام وقدوة الأنام أبي الحسن سيدي علي بن محمد الشيخ الجزولي البكري الدرعي التمگروتي نفعنا الله ببركاته ورضي عنه ، آمين

* * *

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وفضله على كثير من خلقه تفضيلا ، وحمله في البر والبحر حملا جميلا ، وخلق في الأرض فجاجا سبلا ، وجعلها له ذلولا ، وسخر له البحر وهداه في تياره وظلماته إلى قصده سبيلا . إن في ذلك لآية لمن وفق إلى تدبرها وبرهانا قاطعا على وحدانية الله وعلمه وإرادته وقدرته سبحانه وحجة ودليلا . فلله الحمدُ على نعَمه التي لا تُحصَى جُملةً ولا تَفْصيلا. ولهُ الشكرُ على آلائه التي يسديها إلينا ويمدنا بها بكرة وأصيلا ، ويمدها علينا ظلا ظليلا . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد ولد آدم المصطفى نبيا رسولا ، الشفيع في سائر الخلائق وفيهم [آدم وأنبياء الله ورُسُله وإبراهيمُ الذي] (1) اتخذَه خليلا . وعلَى آله [وأصْحابه والتابعينَ لهم وتابعي التابعين قولا معروفا وفعلا جميلا .

---

1) ما بين المعقوفتين بياض في م2 بسبب الرطوبة ، وكذا في م3 .

وبعد فإني](1) أذكر في هذا الكتاب ما رأيته واستفدته في سفرتي التي توجهت فيها إلى بلاد الترك وأثبت فيها ما شهدته من عجائب ركوب الفلك وما يدعو إليه الحال من الأدعية والأوراد التي لنا في هذه الأخطار وفي غَيْرِها من الهَلاك ولكلٍّ مَنْ يَتَحَصَّنُ بها أمنعُ الحصون . وأذكر من أخذنا عنه ذلك من أشياخنا وسلفنا والتعريف بهم وغير ذلك مما يجر إليه الحديث، فالحديث شجون كما قيل :

تَغَرَّبْ عن الأوطان يا طالب العلا ... وسَافِرْ ففي الأسفار خَمْسُ فوائد
تَفَرُّجُ هَمٍّ واكْتساب مَعيشَةٍ ... وعِلْمٌ وآدابٌ وصُحْبَةُ ماجِد
فإن قيل في الأسفار ذُلٌّ وغربةٌ ... وقَطْعُ الفيافي وارتكاب الشدائد
فَمَوْتُ الفتى خَيْرٌ له من معيشة ... بأرض عدو بين وَاشٍ وحَاسِدِ

وسميت هذه الرحلة النفحة المسكية في السفارة التركية :

فأقول مستعينا باسم الله تعالى ومعتصما به سبحانه ومستوهبا من فضله جَلَّ جلاله ومن كرمه لأملاكنا وموالينا الكرام الشرفاء من أهل بيت النبوّة سلالة النبي صلى الله عليه وسلم الذين تبوأنا في أيامهم من العدل كل وثير المهاد، وجمعنا بفضل مساعيهم المبرورة وتحت راياتهم المنشورة وجنودهم المنصورة بين الحج والجهاد أن يجدد الرحمة على من قضى منهم ويتمم النعمة على من خلف، ويخص بالتَّأييد، والحسْنَى والمزيد، رافعَ رايات فَخْرهم، والقائمَ بأعْباء نَصْرهم، والمجددَ لآثارهم ومآثرهم، والمحْيِيَ لمكارمهم ومفاخرهم، فخرَ الملوك الأجلَّة، وناصرَ الملة، والبدرَ الذي زانَ أفُقَ الملك منْ أهْل السُّعداء والأمَراء بالنجُوم والأهلَّة، إمامَ الهُدَى وعمادَ الدِّين وحسامَ الله المسلولَ على

---

1) ما بين المعقوفتين بياض في م2 بسبب الرطوبة ، وكذا في م3 .

الأعْداء ، مولانا السُّلطان أمير المؤمنين السَّعيد [ابن أمير المؤمنين][1] أبي عبد الله الشهير مولانا محمد الشيخ الشريف الحسني، وَصَلَ الله له عادةَ تأييده وعَضْدِه ، وحَباهُ بكلِّ نعْمَةَ منْ عنده ، ومَدَّ للمُسْلمينَ في أمَده ، وأبقَى ظلّه علَى الزمان وأيَّدَهُ واسْتجابَ في أيَّامه دُعاءَ كلِّ مَلهوف أخذَ بيَده ، آمين .

1) سقط من جميع النسخ ، ولا يكمل الكلام إلا به ، حيث المقصود بالدعاء هو أحمد المنصور بن محمد الشيخ .

الفصل الأول :

من درعة إلى تطوان[1]

لـمّا وَرَدَ على العبْد الفَقير ، المقرّ بعَظيم التقْصير في حَقّ مَولاهُ العليّ الكبير ، عَلي بْن مُحَمد بْن عَليّ بْن مُحَمد بْن أحْمَد بن علي بن يحيى الجزولي قبيلة البكري نسبا الدرعي التمگروتي دارا ومنشأ غَفَر اللهُ لهُ ولوالدَيْه ، وَوَفَّقَهُ إلى الخيْر وَخَتَمَ له بالسعادة، ورحِمَهُ ورحمَ خلَفه وأشياخه وإخوانَه ، آمين - أمْرُ الخليفة الإمام مولانا أمير المؤمنين أبي العبَّاس المنصُور أيَّدَهُ اللهُ تعالَى بالوُرُود عَلَيْه والمثول بَينَ يَدَيْه ، وهو إذ ذاك بالمدينة البيضاء حاضرة المغرب فاس حرسها الله تعالى وحَمَاها ، وأدامَها دارَ إسْلام ومَقَرَّ دين وإيمان وعلْم وعَمَل وأبقَاها ، حتَّى تقومَ الساعة آمين ، خرجنا في حفظ الله تعالى وحياطته ولطفه وستره وأمْنه منْ ديارنا بتمگروت ، في بَلَدنا الذي طالَ سَناه ، وطابَ مَعْناه وهوَ الحصنُ المنيع ، في الحسْن رَبيع مريع

بَلَدٌ صَحِبْتُ به الصبابة والصِّبا ... ولبستُ ثوْبَ العُمْرِ وَهْوَ جديد
فإذا تمثّل في الضمير رأيتُهُ ... وعليه أغصان الشباب تميد

ضحوةَ يَوْم السَّبْت أولَ يَوْم من جُمادَى الأولَى منْ شهور سَنَة سبع وتسعين وتسعمائة[2] مودعا لجميع الأهل ، ومتجرّعا من ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل. وكان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود . نثَرَ فيه من جُمَانِ الدمع لؤلؤٌ منظومٌ منضودٌ . موقف أرهقَ وأرخصَ فيه كلَّ دُرٍّ لنا وكلَّ عقيق ، لجموع كوجدنا في اجْتماع ودُروع كالشمل

---

1) إضافة من المحقق .

2) يوافق يوم 18 مارس 1589 .

في تفريق . وقد أعدت الركاب ، وطاشت الألباب ، في وداع جميع الأحْباب ، وقلتُ وأنا صابرٌ صَبْرَ الميِّتِ على الأصْحاب :

أقول لصحبي حين ساروا تَرَفَّقُوا ... لَعَلِّي أرى من بالجناب المُمَنَّع

وألثُم أرضا ينبت العزَّ تربُها ... وأسقي ثراها من سَحَائب أدمعي

وينظر طرفي أين أترك مهجتي ... فقد أقسمت أن لن تمر غدا مَعِي

وما إن خلفتها متأسفا ... عليها وقد حَلَّت بأكرم موضع

ولكنْ أخافُ العُمْرَ في البَيْن يَنْقَضي ... على ما أرَى والشمْلُ غَيْرُ مُجَمَّع

ولمّا تبرأ التابع من المتبوع ، وطفيت نيران الوداع بمياه الدموع، وعطفَ المودِّعونَ لنا بالعَوْدة لقُطرهم والرجُوع ، وهمْ بينَ راجع بالجسم وهو بالقلب مستصحب ، وضاحك لما يرجوه لنا وهو على وداعنا منتحب، أخذنا في الارتحال وأنشدت بلسان الحال :

ليت شعري أنَلْتقي بعد هذا ... أمْ وداعا يكون هذا اللقاء

فاذكُروني وزوِّدُوني دعاء ... خَيْرُ زادٍ تزودوني الدعاء

ثم أمطيت الطرفَ طريقَه ، ولمْ أبلغه في الأناة ريقَه ، والفراقُ يردي فريقَه ، وقلت :

وأذهَبْت أيامَ الشبيبةِ في النَّوَى ... وأتلفتُ باقي العُمْر يا ضحوةَ السبْت

فَقُلْ لجديدِ العيش لا بد من بِلَى ... وقل لاجتماع الشمل لابد من شَتّ

وسرنا بعزمة لا يفل حدها ، ولا يتجاوز مدها ، وحزامة لا يثنى رسنها ، ولا يلم بعين وسنها . وأنا بين ظفرالتوحش ونابه ، كلّما طلعنا من منزل أوحللنا به ، أكنُّ من الوجد ما غاية الثكلى تكنه، وأبدي من الحنين ما لا تطيق الجوانح أن تحنه ، وأردد :

أَهَذَا ولمَّا تمضِ للبيْن ليلة فكيف إذا مَرَّت عليك شهور

وكلَّما فَتَّشتُ للأوطان في فكري ذنباً أجْعَلُهُ سَبَباً للسُّلُو ، أوْ عَيْباً أركنُ به إلى الراحة والهُدُو ، قال الاختبارُ لاسبيل إلى ذلك . فلم أزَلْ من الوجد والحنين في مثل ظلام الليل الحالك ، ولولا أني رجعت إلى جميل الصبر بعد الذهاب ، وعللت الروحَ التي راح مسيرها بقرب الإياب . لأمسيت أثرا بعد عين ، ولكنت أحد من قتله يوم البَيْن .

البَيْن جرعني نقيعَ الحنظل والبين أثكلني وإن لم أثكل
ما حسرتي إن كنت أقضي ، إنما حسرات نفسي أنني لم أفعل
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كَمْ منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبدا لأول منزل

ثم وقفت بالثنية المُشْرِفَة وقفة مُسَلِّم ، وودعت البلاد وداع المتأمل المتألم وأنشدت :

خَلِيلَيَّ هذا موقفٌ من متيَّم فعُوجا قَليلا وانْظِراهُ يُسَلِّمِ

وصرت أحَمِّل أنفاس الصبا حقائب الوجد، وأتمتع من شميم عرار نجد ، وأنشد :

وفارقت ما فارقت لا عن مَلالة وَوَدَّعت من ودعت لاعن تَعَوُّض

غيره :

وَدَّعْتُ قَلبي يَوْمَ وَدَّعْتُهُمْ وقلتُ يا قلبي عليك السلام
وقلت للنوم انصرف راشدا فإن عيني بعدهم لاتنام
مُحَرَّمٌ يا عين أن ترقدي وليس في العالم نوم حرام

حتى وردنا سجلماسة ضحوة يوم الأربعاء الذي بعد يوم خروجنا ، ثم خرجنا منها يوم الجمعة لأربع ليال خلت من الشهر ،فدخلنا مدينة فاس

عَمَّرها اللهُ بدوام ذكره يومَ الثلاثاء لخمْس ليال بَقِينَ منْه ، سالمين والحمد لله . فدخلنا على السلطان نصره الله في قصره وسلمنا عليه ، فأنزلنا في إيوان بالقرب منه ، وأكرم مثوانا أيده الله وبسط علينا نعمته .

ثم أبرز محلته السعيدة المنصورة إلى ظاهر المدينة وخرج إليها ، وأمر بخروجنا إليها ، فخرجنا فإذا هي روض به يثير خيلا وأعنة ، وبحر يزخر قنا وأسنة ، وذوائب الأعلام تخفق، وألسنة عذباتها تكاد بالنصْر تَنْطق، والأحْوالُ قد اسْتقامَت ، والأخْبيةُ علَى القاعدينَ فيها قدْ قامت ، وهي مبيضة كسقيط الثلج ، مصطفة كبيوت الشطرنج ، وقد أشرق الجو بإشراق الخمائل والنبات ، وأشرف على مدينة أحدقت بها الأزهار من جميع الجهات . ومنزل السلطان في محلته قباب وأروقة وسرادقات ، بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد قامت أخبية مضروبة كأنّها التيجان المنصوبة . وله قصر[1] من عود [مسمر][2] بمسامير وحلَق ومَخاطيفَ وصفائحَ مُفَضَّضَة علَى هَيْأة عظيمة . وقد أحدقَ بذلك كلّه سُرادقٌ كالسور نسيج كتان ، كأنّهُ حديقةُ بُسْتان وزَخْرَفَةُ بُنيان، وفي داخله القباب الملونة حمرة وسوادا وخضرة وبياضا كأنّها أزاهير الأرض . والقصر الذي يكاد لمعانه يخطف الأبصار قد نقش كل ذلك أحسن النقش ، وملئ بأبهى الفرش . وللسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب مشيدات القصور يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يفضي بها إلى الفصل الذي فيه القباب والقصر ، فكأنّه مدينة قد أحدق بها سور مشرف تنتقل بانتقال السلطان وتنزل بنزوله . وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند الملوك الماضية .

---

1) نقل الإفراني وصف هذا القصر في : **نزهة الحادي** ، 199 .

2) زيادة من م3 .

وقـد كنا لما وردنا على السلطان أيده الله وجـدنا عنده رسل العثماني[1] الترك ملك بلاد الترك والروم سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين صاحب القسطنطينية العظمى خاقان ، قدموا من عنده بهَدية عَظيمة. فأقمْنا بالمحَلَّة نَلتَقطُ دُرَرَ الأنباء ونَتَلَقَّى دَرَّ النعْماء ، ونَسْرحُ في جهاتها ، ونمرحُ العينَ في مُنَتزَّهاتها ،[إلى أن][2] خرج الأمر العلي المطاع ، وبرز الإذن السلطاني الذي مخالفته لا تستطاع ، ولا لما أمر به دفاع . فتوجهنا مع السيد الكامل الفقيه الفاضل ، الكاتب الأرفع الأديب السميدع ، سيدي محمد بن علي الفشتالي[3] حفظه الله تعالى سفيرين بهديته المباركة مع الرسل ، ووردنا بها على الأبواب العثمانية بالقسطنطينية قاعدة الملك بأقصى بلاد الروم وهي المعروفة عند أهل المغرب بصْطَنْبُل . وقد حدثني بعض من له خبرة بلغة أهل تلك البلاد أن اسمها عندهم استانبول وأن معناها بلغتهم الإسلام الكثير، والله أعلم[4] .

فخرجنا من فاس يوم السبت لعشر ليال بقين من جمادى الأخير من العام المذكور[5] فوردنا ثغر تيطاون يوم الخميس لخمس بقين منه فأقمنا بالثغر ثلاثة أشهر : رجب وشعبان ورمضان، ننتظر ورود السفينة علينا من الجزائر . فما وردت إلا لليلتين بقيتا من رمضان[6] بعد أن

1) تشير وثيقة إسبانية إلى أن السفير العثماني كان بفاس يوم 8 مارس 1589 (الخميس 1 جمادى الأولى 997) [هامش ك ، ص : 8]

2) زيادة ليستقيم الكلام .

3) من مشاهير رجال البلاط السعدي في عهد المنصور كاتب وشاعر مجيد ، ينظر عنه وتنظر لائحة مترجميه عند : حجي ، محمد ، الحركة الفكرية ، 2 : 399.

4) إسطنبول أو إصطنبول . اختزال لاسم المدينة الأصلي : مدينة قسطنطين CONSTANTINOPOLIS [هامش ك ، ص : 9] وينظر فيه ايضا اجتهادات كثيرة لتفسير اسم المدينة .

5) يوافق يوم 6 مايه 1589 .

6) الجمعة 29 رمضان 997 / 10 غشت 1589 .

سَرَدْنا **صحيحَ البخاري** وخَتَمْناه ورَكِبْنا البحْرَ إثرَ خَتْمنا لهُ وَوَجَدْنا له بركة عظيمة في سفرنا .

وكان قد بلغ السلطان أيّده الله تعالى أن سفينة الرايس قبطان الجزائر يقال له "أرنط مم"(1) أرنط قبيلة من رعية بلد الترك ومم هو محمد بلسانهم . وكذلك كانت لغتهم يقدمون المضاف إليه ويؤخرون المضاف . وكذلك ، والله أعلم ، لغات العجم كلها خالفوا العربية في ذلك .

وردت هذه السفينة لرفع رسل الترك، فأشخصنا السلطان وأزعجنا إليه معهم لما ورد عليه كتاب صاحب السفينة . وحين وردنا الثغر وجدنا السفينة صارت إلى الجزائر ، قبل ورودنا بليلة واحدة ، زعم رئيسها أن أغربة الإفرنج دمرهم الله تحركوا بأطراف سبتة أعادها الله للإسلام آمين ، فخاف منهم ، وأن تيطاون ليس لها مرسى تمنعهم منهم.

---

1) تعني أرنوط ألباني ، والمقصود مامي أرنووط أحد رياس البحر المشهورين في الجزائر [هامش ك ، ص : 9].

الفصل الثاني :

من تطوان إلى تونس

ثم سافرنا من تيطاون[1] وركبنا البحر يوم عيد الفطر وهو يوم الأحد لليلتين خلتا من شهر غشت . فتحرك علينا الموج وهاجت الريح واضطرب البحر إلى آخر النهار ، فأرسينا على ترغا بعد مشقة عظيمة وميد شديد . وقالَ الرايس لا بُدَّ منْ نَقص الناس من السَّفينة وإلاّ خفنا من الغرق ، فأنزل هناك جملة من الناس منهم بعض خدامنا ، سمحت بهم أنفسنا إيثارا للسلامة لنا ولهم . وترغا قال ابن عبد ربه في **عقده** هي بلد كبير ذو سور بها جامع وهي بلاد الحياكة منها إلى وادي لَوْ[2] نحو ثمانية أميال ومنه إلى تيطاون أربعة وعشرون ميلا .

ثمَّ ركبْنا منْها فأرْسَيْنا في مَرْسَى جُون بادس ، والسفينةُ تَضْطربُ بنا وتميل يمينا وشمالا. فأخرج الرايس وسقها حتى سواه تسوية معتدلة فاستقامت في سيرها . ثم سافرنا واجتزنا على بادس[3] وفيه النصارى دمرهم الله ، ليلا . ثم اجتزنا على طرف فورك[4] وهو جبل مستطيل

---

1) ورد في رسالة من قائد الفرقة القشتالية في سبتة . إلى ملك إسبانيا ، مؤرخة بيوم 17 غشت 1589 (3 شوال997) ما يلي : "يوجد في تطوان سفير السلطان التركي ورفقته أحد كتاب الشريف ومعه هدايا" [هامش ك ، ص : 10] .

2) واد يعرف باسم واد شفشاون عند منبعه ، ومروره بالمدينة المذكورة ، ويسمى واد إسماتن في مجراه الأوسط .

3) يجب التمييز بين بادس المدينة الواقعة على الساحل وحجرة بادس الجزيرة القريبة منها ، وهي التي احتلها الإسبان سنة 1564. ينظر عنها : حليمة فرحات ، مادة بادس ، معلمة المغرب ، 3 : 965.

4) رأس فورك . وللكلمة صلة بالفَرْكة (وتنطق أيضا تْفَرْكة) وهي فرع الغصن الشبيه بالعلامة التي يرسمها أصبعا الوسطى والسبابة . ويعرف هذا المكان أيضا برأس الفرشاة FORCAS . ولها نفس المدلول .

داخل البحر، وهو موضع مخوف جدا لأنّ الصيادين من البحريين المسلمين والنصارى ، ويسمونهم بلسانهم القراصين ، يكمنون فيه . فمن اجتاز به من عدوه ممن استضعفه خرج عليه وأخذه . فكثيرا ما تتخذ فيه السفُن . وفي جهَة الشرْق كانتْ مليلة[1] وهيَ مَدينةُ النصارى فيها اليَوم ، أعادَها اللهُ للإسْلام. ثمَّ أرْسَيْنا بجُزُر مَلْوية[2] وهيَ ثلاثُ جزر متقاربة حيث يقع نهر ملوية في البحر . فأقمنا بها يومين حبستنا فيه ريح شرقية قوية جاءت في وجوهنا وعظم بها موج البحر واضطرابه. وقد ذكر لنا أهل تيطاون أن النصارى ، دمرهم الله، اتبعونا من سبتة بثمان سفن، فخذلهم الله وردهم خائبين بسبب هذه الشرقية ثبطتهم عنا حتى فتناهم والحمد لله . ذكروا ذلك في رجوعنا إليهم . ثم أرسينا على هنين[3] وهي بلدة[4] مسورة وهي اليوم خربة لم يبق فيها إلاّ سورها ومسجدها وبداخل السور أشجار تينٍ . ثم سافرنا منها واجتزنا على مدينة وهران وفيها النصارى[5] دمرهم الله وأعادها للإسلام . قال ابن عَبد ربِّه هيَ مَدينةٌ حصينة[6] بناها مُحَمَّد بنُ أبي عَوْن وجَماعَةٌ من الأندلسيين سنة تسعين ومائتين . قال البكرى : وأهلها موصوفون بعظم

1) احتل الإسبان مدينة مليلية سنة 1497 ، ينظر عن هذه المدينة وتاريخها : حسن الفكيكي ، المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية.

2) وتسمى أيضا جزر كبدانة ، واستعملت للدلالة عليها كذلك كلمات "الشفارين" و"الزفارين" Chafarines/Zaffarines ، ينظر عن هذا الموضوع : محمد بن عزوز حكيم ، موقف السلطان مولاي عبد الرحمن من الاعتداء الأجنبي على جزر كبدانة ، ضمن أعمال جامعة مولاي علي الشريف الخريفية ، الدورة الخامسة ، ص : 58.

3) مَرفأ صغيرٌ عندَ مَصبّ وادي تافنا . احتلّه الإسبانُ سنةَ 1531 وخَرجوا منهُ سنةَ 1534.

4) بليدة في م2 وم3.

5) احتل الإسبان مدينة وهران في 17 مايه 1509 .

6) خصبة في م2 وم3.

الأجساد والشدّة والأيد، يصل الرجل الطويل من غيرهم إلى منكب أحدهم ويحمل الرجل منهم ستة رجال من غيرهم : يحمل على عاتقيه رجُلَين وعَلَى ذراعَيْه رجُلَين وتحتَ إبطَيْه رجلَين . وإن احتاجَ منْهم رجل إلى بناء بيت فيقطع نخلة[1] فيحملها على كاهله إلى منزله فيسوي منها بيتا تاما معرشا .

وبينها وبين تلمسان مرحلتان . واجتزنا عليه في وسط النهار، وهو في جون كبير داخل في البحر ما بان لنا منه إلاّ الأبراج . ثم اجتزنا أيضا على مستغانم . قال ابن عبد ربه : هي مدينة مسورة بمقربة من البحر على مصب وادي الشلف في البحر ، ذات أعين وبساتين وأراضي ومياه . ويجود في أرضها القطن . ثم اجتزنا على مدينة تنس وهي حصن بناه البحريون الأندلسيون ومن معهم سنة اثنتين وستين ومائتين . وأهلها الأصليون من ولد ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه . هكذا ذكر ابن عَبْد ربّه . ثمّ أرسَيْنا عَلَى شرشال وهيَ بُلَيْدَةٌ [حَصينة][2] كثيرةُ العمارة والزرع والفواكه ، يجلب منها الزرع وغيره إلى الجزائر . ثم سافرنا منها وأرسينا بميناء الجزائر حرسها الله . فدخلناها يوم الثلاثاء لعشر خلون من شوال . قال ابن عبد ربه : هي جزائر بني مزغنا وهي مَدينةٌ آهلةٌ مانعةٌ كثيرةُ الخصْب . ثمَّ سافَرْنا منْها يومَ الاثنَين الموفَي

---

1) كلخة في جميع النسخ ، والكلخ نبات من الفصيلة التي ينتمي إليها البسباس والدرياس [هامش ك ، ص : 12] وهي كلها نباتات قليلة الطول ، لا تصلح للبناء ، بخلاف النخل، وبه أيضا يستقيم الكلام عن قوة وأيد أهل وهران .

2) زيادة من م2 وم3.

ثلاثينَ من الشهْر أول يَوْم منْ شتنبر[1] فأرسَيْنا على حصْن دلَّس. وهو حصن مليح منيع ، إلاّ أنّه عفى اليوم وخرب ولم يبق فيه إلا عمارة قليلة ضعيفة. ثم أرسينا في ميناء بجاية وهو مرسى حصين في جون عظيم يمنع من كل ريح ، له مدخل ضيق في جبال شاهقة . أقمنا فيه يوما واحدا . وبجاية مدينة عظيمة . في القديم كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء والصالحين . منهم الولي الصالح المبترك به أبو مدين شعيب بن الحسيْن الأنْصاري[2] دفين تلمسان نفعَ اللهُ به ، كانتْ دارَ سكناه في حياته إلى أن بعث إليه سلطان مراكش من الموحدين[3] يشخصه إليه . فعظم فراقه على أصحابه ، فقال لهم : هونوا عليكم فإني رجل كبير السن ضعيف البدن ، ووفاتي قدرت في غير هذا البلد ، وأنا عاجز عن الوصول إلى موضع الوفاة، فقيض الله من يحملني إليه برفق فأموت فيه ، وأولئك القوم لا أراهم ولا يروني . وكان ذلك السلطان بعث إلى والي بجاية أن يحمل الشيخ إليه مكرما محترما ،

---

1) يورد التمكروتي كثيرا التاريخ الهجري مقرونا بمقابله الميلادي وتجدر الاشارة إلى أن التاريخ الميلادي ظل يعتمد التقويم اليولياني الذي أقره الإمبراطور يوليوس قيصر سنة 46 قبل الميلاد . إلى أن غيره البابا غريكوريوس 13 ، سنة 1582 حينما قرر أن يعاد تاريخ يوم الاعتدال الربيعي إلى موعده الأصلي (21 مارس) عوض 11 مارس الذي أوصل إليه التفاوت بين السنة الشمسية والسنة الحسابية المعمول بها في التقويم اليولياني . وهكذا تقرر أن يكون اليوم الموالي للخميس 4 أكتوبر 1582 هو يوم الجمعة 15 أكتوبر وليس 5 أكتوبر . ومن هنا نشأ الفرق بين التقويمين ، وقدره 10 أيام . ويبدو أن التمكروتي ظل يعتمد التقويم اليولياني ، حين يذكرُ أن يوم الاثنين 30 شوال سنة 997 يوافقُ أول يوم من شتنبر 1589 . فموافقته على ذلك صحيحة . ويلاحظ أن الجداول القائمة على الحسابات العلمية تؤكد أن شهر شوال 997 يستكملُ ثلاثين يوْما ، وأنّ يومَ الاثنين 29 شوال 997 يُوافقُ يومَ 10 شتنبر 1597 .

2) المتوفى سنة 1189/594. تنظر ترجمته مطولة وكذا مصادرها عند : عبد الوهاب ابن منصور، أعلام المغرب العربي ، 2 : 15 ، والهامش 18 ص : 19 .

3) السلطان المشار إليه هو يعقوب المنصور 580-595 (1184-1199) .

وكانت بجاية إذ ذاك لأهل مراكش ، وكذلك غيرها من بلاد إفريقية ، فحُملَ الشيخُ مُكرماً مُعظما إلى أن وصلَ تلمسان . فحينَ نزلوا به في مَوضع قبره بالعُبَّاد ، وسألَهم عن اسْم المكان فقيل له العُبَّاد ، فقال إنه صالح للرقاد .فتوفي هناك رحمه الله ونفعنا ببركاته . وهو أندلسي الأصل من قيطانة[1] حصْن من عَمَل إشبيلية.

وكذلك كان ببجاية معاصرا لهذا الشيخ العالم أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الأزدي البسيلي[2] مؤلف **العاقبة** وغيرها وبها توفي ، فقبره بها يزار . وكذلك الشيخ أبو الحسن علي الاشبيلي المتوفى بها . وغيرهم من العلماء والصالحين الذين كرامتهم ظاهرة مشهورة في حياتهم وبعد وفاتهم ، رحمهم الله. وبجاية إلى الآن خراب هدمها النصارى[3] دمّرهم الله ، لم يبق بها إلا ديار قلائل على طرف البحر وقلعة صغيرة تسمى باللؤلؤة[4] ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك ، يمنع المرسى من العدو . قال ابن عبد ربه : "بجاية مدينة عظيمة مستندة إلى جبل ومبانيها يركب بعضه بعضا ، وتسمى المقدمات . وبناؤهم إنما هو بالجص وحده لا يبنون بالتراب ولا بجيار . وعلى فرسخ منها الوادي الكبير ، يركبون فيه في السفن الصغار يتنزهون فيه وهو أعجبُ ما يُقرُونَ به . وأهلُها أهل تَنْدير في كلامهم وفيها يقولُ الشاعر:

بجايـــة كلهــا عقـــاب ... المشي في أرضها عقــــاب
يخفـــق في طـرقهــا فـــؤاد ... كخرنق صـاده عـقـــاب

---

1) كذا في كل النسخ ، والقصد قنطيانا .

2) كذا في جميع النسخ ، والأصح الإشبيلي ، وهو المعروف بابن الخراط المتوفى سنة 581/1158.

3) احتل الإسبان بجاية من سنة 1510 إلى سنة 1555 .

4) يسميها ابن خلدون "قصر اللؤلؤة" [تعليق ك، ص15] .

وقال الشيخ أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن علي ابن أبي خالد البلوي رحمه الله في **رحلته** في بجاية : بلدة قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير وخُطَّابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير . فكم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من بيض صفاح ، يمتد أمامها بسيط أخضر مدى البصر . قد أجرى الله فيه مذانب الماء تسقيه ، وتضرب في نواحيه ، كأنّها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد ، محفوفة بالزمرد والعسجد، والبساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار . والنهر الأعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار . والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه . فهي النضيرة الدوح العطرة الريحان والروح ، العذبة الأنهار، الجنيةُ الأزْهار ، الطيِّبةُ الهواء ، المشرقَةُ الأضْواء ، التي أجمعت عليها الأمراء ، وسلم لها اللواء ، وشيد فيها البناء ، وبعد لها الصيت الممدود والثناء . وانتظم فيها من الوادي والبحر ، قلادتان على ذلك النحر ، قد حلّيا ذلك البلد، وتحليا كوالد وما ولد . قد مزجهما الله بحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان. فإذا ضاحكتهما الشمس انعكس الضياء ، وزاد الاحتفال في النور والأفياء ، في رياض قد انتظمت انتظام الأحباب ، وشقائق ترفل في أثواب من الشباب ، وتسدل أذيالها بين تلك القباب .

ورياض كأنما نثرت فوق ثراها حريرة خضراء
أعين النرجس الجني نجوم واخضرار الرياض منها سماء
للثرى تحتها شيات وللماء غطيطٌ وللغصون لقاء

فأول من لقيته من أرباب المحابر ، وركاب أعواد الكراسي والمنابر، فاضل الأفاضل وكبير الأكابر ، الشيخ العالم المحدث ، أبو عبد الله محمد بن جعفر رحمه الله. قصدت لقاءه والأخذ عنه . وقَدَّمْته

وبدأت منه ، وكنت أسمع من ملفوظ حامده ، ومحفوظ محامده ، ما هو بغية للسامع وحلية للمسامع . فلما رويت من مكارمه ما رويت ، استصغرتُ ما سَمعت لعظيم ما رأيْت ، واسْتَـقْللتُ ما سمعَتْه أذناي، لما عاينته عيناي ، وأنشدت لنجم الدّين بن مهذب الدّين :

كانت محادثة الركبان تخبرني   عن مجدكم وسناكم أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت   أذني بأحسنَ مما قد رأى بصري

فأنزلني بمنزله الكريم ، وقابلني بالترفيع والتكريم ، وأقمت معه فيه يفيض علي من كرمه بحرا زاخرا ، ويعاوضني من علمه بمنهل لا أجد له آخرا ، ويرويني بمسوغاته الفاضلة ، ويروقني من مسموعاته الحافلة ، فلا أدري من أي بحريْه أعجب ، ولا أيهما أروى وأعذب ، حتى قلت له :

أبكيت عين الغيث لما فته   كرما ، فثغر البرق منه يضحك

فارتاح وتهلل ، وأكثر من الأفضال وما قلل ، وجرى على عادته في المكارم والانطباع فأنشدته :

ولو صَوَّرْت نفسك لم تَزِدْهَا   على ما فيك من كرم الطباعِ

سمعت عليه تصانيف كثيرة ، وأجازني وكتب لي بخطه . وكان رحمه الله إمام هدى وعدالة ، ووحيد معارف وجلالة ، عالي الرواية ، كامل المعرفة والدراية ، رصين العقل ، إمام في التحديث والنقل ، مُتفاوتُ الكرم ، بعيدُ الهمَم ، زكيُّ الشيَم ، حَسَنُ المنازع، مَليحُ المبادئ والمقاطع ، واقعا من النفوس أعلى المواقع . ذكر لي ، قال : ذكر لي الشيخ القاضي أبو العبّاس الرندي[1] قال : كنا جلوسا بحضرة

---

1) يوسف بن موسى ، شاعر ، توفي حوالي سنة 1365/767.

تونس مع القاضي بها أبي العبّاس ابن الغماز لارتقاب شهر شوال ، فإذا بطفل صغير وسيم قد نظر ورآه قبلنا. فقال القاضي ابن الغماز : كنا جلوسا مع الشيخ أبي الربيع بن سالم الكلاعي[1] بمدينة بلنسية لارتقاب هلال شوال، فأول من رآه غلام وضيء الوجه من قرابة الشيخ ، فارتجل الشيخ ساعتئذ وأنشد :

تواري هلال الأفق عن أعين الورى وغطى بسجف الغيم زهوا محياه
فلما أتى شقيقه ليزوره تبدى له دون الأنام فحياه

وممّا أنشدته فاستعذبه وحفظه وكتبه ، ما أنشدني الشيخ الخطيب المحدث الحاج الفاضل أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد إجازة، قال: أنشدني ناصر الدين نصير بن أحمد بن علي المصري المناوي الحمامي بحمامه بمصر لنفسه ، في فتى اسمه فرج الله ، على طريق التورية :

أقولُ لقَلبي وقدْ ذابَ في هَوَى شاذن حازَ حُسْناً غَريباً
تصبر إذا كنت في شدة عَسَى فرجُ اللهِ يأتي قَريباً

[وأنشدني لبعضهم عند الوداع][2] :

يا راحلا ودموع العين تسبقه هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفْتك جفوني وهيَ داميةٌ ولا وفَى لك قَلبي وهو مُحْتَرق

وقد أفادني من فرائد الفوائد ، مالا يفيده إلا فرائد العلماء الأماجد . وكانت مجالستي إياه ببجاية آخر العهد به ، فإنه توفي بعد انفصالي منها ونزوحي عنها على أحسن ما أجرى الله حاله عليه من حسن السيرة وخلوص السريرة . جدد الله عليه من الرحمة والمغفرة

---

1) سليمان بن سالم الكلاعي ، محدث الأندلس وبليغها . من أهل سبتة وولي القضاء بها ، توفي سنة 1237/634 .انظر عنه : الزركلي ، الأعلام ، 3 : 136.

2) سقط ما بين المعقوفين في م1 وم2.

وجعله من الذين قال الله فيهم : وجوه يومئذ مسفرة . ثم لقيت بها جملة من الفضلاء وجلة من العلماء قد ضمهم الولاء في فلكه ، وانتظمهم في سلكه :

لهم همم كما شمخت جبال وأخلاق كما دمثت بطاح
تُرَى بهم النجوم ولا ظلام وأوضح النهار ولا صباح

قصدتُ الرؤيةَ لهم والروايةَ عنْهم ، فنحَوْا نحْوَه ، وحذَوْا حَذْوَه ، واقْتَدَوْا بفعله وإنْ لمْ يُدْركوا شأوَه :

يا بارقاً بأعالي الرقمَتَيْن بدا لقد حكيتَ ولكنْ فاتَك الشنَبُ

ثم أخذتُ في حركة الخروج من ذلك القطر الذي هو حاضرة البحر ونادرة الدهر ، وموطن الفضلاء من أهل العصر الذين طبق ذكرهم تَطبيقَ الغَمائم ونَمَّ كما نمتْ بأزهارها الكمَائم ، ولهمْ مآثرُ يتعاطى الركب كؤوس حصباها ويتهادى نوافح رياها :

وما أراني بمستوف مناقبهم ولو نظمت لهم زهر النجوم حُلِي

ففارقت الصبر عند مفارقة تلك المنازع، وودعت الجَلَد عند وداعي لذلك المسجد الجامع ، وسرت وقلبي في تلك التلاع وتلك الأجارع ، وقد خامرني الفرق ، واستودعني على الأرق ، وأولعت بما يولع به المشفق ، وأنفقت دمعي وكل امرىء مما عنده ينفق ، ورحم الله زهيرا المهلبي[1] ، فعن حالي عَبَّرَ بقوله :

إلى كمْ جفوني بالدموع قريحة وحتى متى وقلبي بالتفرق خافق
ففي كل يوم لي حنين مجدد وفي كل أرض لي حبيب مفارق
ومن خُلُقي أني ألوفٌ وأنه يطول التفاتي للذين أفارق
وأقسم ما فارقت في الأرض موضعا ويُذْكَر إلا والدموع سوابق

1) بهاء الدين زهير بن محمد العتكي، ت 656/1258 . ينظر عنه : الزركلي، أعلام، 3:52.

فَيَمَّمْتُ خَيْرَ مُيَمَّم ، وفارقتُ غَيْرَ مُذَمَّم .

انتهى كلام أبي البقاء خالد بن أبي خالد . وجلبته بتمامه ليعلم منه ما سلف لهذه المدينة من الحضارة والعمارة ودرج فيها من العلماء والصالحين. إذ لا يظن بها ذلك من شاهدها على حالتها اليوم من الخراب، والبقاءُ لله تعالَى وحْدَه.

فلما سافرنا من بجاية عشية يوم الأربعاء هبت علينا ريح شديدة تلك الليلة ، وعظم الموج وهاج البحر واشتدت الريح ، وصار الموج كالجبال الشوامخ يضم السفينة كلها ويميلها يمينا وشمالا ، كالبهيمة التي تتمرغ في التراب . وأيس النّاس من السلامة والنجاة وأيقنوا بالهلاك والغرق ، وبعدت السفن من البر خوفا منه ، إذ لم يجدوا مرسى هناك وأمر الرايس النّاس كلهم بالنزول إلى جوف السفينة ، حتى لم يبق على ظهرها إلا خدمة أحبالها وقلاعها من النصارى والبحرية ، ليخف ظهرها ويقلَّ اضطرابُها ومَيْلُها ، ويَجدوا سَعَةً لخدمتها. والبحرُ لا يَزدادُ إلاّ اضطرابا وموجا واشتد الميد بالناس والقيئ ويتنخم كل واحد في مكانه لا يدري من هو جليسه ولا يحس بما فعل به . ولسان مقاله وحاله ينشد قول ابن دراج القسطلي الأندلسي[1] :

أقول وموج البحر والهول والدجا ... تمور بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا ... سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

والقويُّ المتماسكُ منْهم مَنْ قَدَرَ علَى أنْ يَنطقَ بالشهادة ويستعدَّ للمَوْت . وعَظمَ الخطبُ واشتدَّ الأمرُ تلك الليلةَ كلَّها ومن الغد إلى أن جزنا مرسى جيجل ودخلنا مرسى القصب فخف علينا الحال واشتد فرح الناس بالسلامة والحمد لله .

---

1) أحمد بن محمد ، شاعر المنصور بن أبي عامر، ت 1030/421. ينظر عنه: الزركلي ، أعلام ، 1 : 211.

ثم دخلنا مرسى القل وهو مرسى مليح مستكن من الريح ، فيه سوق وديار وجامع أقمنا فيه يومين وصلينا فيه الجمعة . ثم سافرنا منه إلى مرسى بونة وهي مدينة وتعرف ببلد العنّاب لأن أكثر شجر فجوجها العناب .

قال ابن عبد ربه : "ويطل على بونة جبل كثير الثلج وفيه مسجد لا يصيبه شيء من ذلك الثلج وإن عم الجبل . وبونة كثيرة اللحم والحوت واللبن والعسل. وأكثر لحومها البقر ويصح بها السواد دون البياض ، انتهى .

ومنها ترفع السفن اليوم السمن الكثير إلى قسطنطينة .

قال أبو البقاء خالد بن أبي خالد في **رحلته** : بونة مدينة مكينة ، وقلعة حصينة، شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبيه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ومائدةٌ من الأرض مُسْتَديرة ، ساميةُ الأرْجاء ، واسعةُ الفناء ، موضوعة على نسبة حسنة في الاعتدال والاستواء . والمدينة العجيبة كالعروس في ناديها ، قد رفلت في ذرع واديها ، وامتنعت بحسامها المسلول من غيَرِ الأيام وعواديها . فاتخذت به من المطالب مُعْتَصماً ، وتحلّتْ في سواره مِعْصماً ، فَلِكُلٍّ مَسقط نَظرة ، ما اشتَهَتْ الأنفس من نعيم ونضرة ، نهر هتان ، يحفه بستان ، و مرأى لخواطر الأدباء فتان.

نهر يسيل كما يذوب نضار	وتذوب في أيدي السقاة عقار
فإذا استقام فصارم دامي الظبا	وإذا انحنى جزع به فسوار
مغرورق التيار ملتطمٌ كما	خفقت بظهر مهب ريح نار
فاحمرَّ واخضرَّ النباتُ بشطِّه	فكأنَّ ذا خَدٌّ وذاك عِذار

لهـا أرض تقـتـنص النظر بتـدبيـج أزهارها ، واطراد أنهـارها ، وتؤمن الراكض بها من هبوة غبارها ، وكبوة عثارها ، كأنما نسج أديمها منسج ، واستوت أطرافهـا وأوساطهـا فجوها سجسج ، ومتى تكاهلت الفصول أعاد الله شبابهـا فـأنشـأها خلقا جديدا ، وجعل عـودها عـودا مْثْمراً وظلّها ظلا مَديدا ، فيا لله اتسـاعُ ظواهرها وبَواديها ، والحسن البادي ببحرها وبواديها ، وارتفـاع تلك القلعـة والحصن وما أوتي من المنعة والحسن ، قد غـمرت نجاده وغيطانه ، واستقر بين خصب الوادي ورحب النادي ثواؤه واستـيطانه . صعدت إليـهـا فرأيت حصنا مستقلا مكثرا من الحسن لا مقلا ، بل معقل الحسن ومستقره وفخار الإنسان ومسره ، قلعة قد عقد الجبل حبوتها ، وأحال الغراب أن تطأ ذروتها ، وعصم سوار الوادي الملوي معصمها ، وحمت غـرر دهمائها أدهمها ، فـالخيل تصعـد منهـا أنجمـا في فلك بين طالع كطالعـهـا ، أو غـارب كغاربها ، والأرجل منها على كرة لا تستقر بأخمص راجلها ولا بحافر فرس راكبهـا وكـأنها قد اهتزت لولا ما جعل الله الأرض ذلولا وأمر أهلها أن يمشوا في مناكبها . فمشيت منها في منكب سام وأنف للنجوم مسام.انتهى .

وقـد أقـمنا بمرسى بونـة يومين وهو مـرسى حـصين في جـون واسع كبير جدا . وزرنا في جامعها قبر الولي الصالح أبي عبد الملك مروان بن علي بن القطان. قال القاضي عياض[1] في رسم هذا الشيخ من **المدارك:** هوَ أندلسيُّ الأصْل ، سَكنَ بونةَ منْ بلاد إفريقـيـة وكـانَ من الفُـقـهـاء المتفننين، ألفَ في شرح **الموطأ** كتـاباً مَشـهوراً رواهُ عنْه الناس ، وتَفَقَّهَ

---

[1]) أبو الفضل عياض بن موسى . ولد بسبتة سنة 1083/476 وتوفي بمراكش سنة 1149/544. من أشهر مؤلفاته : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك.

بأحْمد بن نصر الداودي[1] روى عنه حاتمُ الطرابلسي[2] وأبو عمران[3]. و قال حاتم : كان رجلا فاضلا حافظا نافذا في الفقه والحديث، أصله من قرطبة سمع معنا وسمع منه تفسير **الموطأ** من تأليفه ولزم الداودي وغيره. قال أبو عمران: كان صالحا عفيفا عاقلا حسن اللسان رحمه الله.

ثم سافرنا منها إلى ميناء بنزرت ، فأقمنا فيها يوما واحدا . وفيها حَلْقٌ ينفذُ منْه البحرُ إلى بُحَيْرة هناك واسعة يَدخلُ منْهُ ماءُ البَحْر عند المد آخر النهار إلى البحيرة ويخرج منه عند الجزر أول النهار ، ويسمونه هم الوادي . اكتنفته الديار والبنيان على عدوتيه فتدخل السفن فيه وتكون كأنها في داخل البلد بين الديار ويأمن أهلها عليها ويتصرفون في حوائجهم إلى تونس وغيرها .

قال ابن عبد ربه : مدينة بنزرت هي على ساحل يعرف بمرسى القبة ، وهي حيث يقع النهر الأعظم في البحر . وبإزائها بحيرة فيها أصْنافٌ من الحوت . وهيَ أكثرُ بلاد إفريقية حوتاً . ويَزعمونَ أنَّه يخرجُ فيها في كل شَهْر نوعٌ من الحوت لا يُشاركه غَيْرُهُ طولَ الشهْر. وربما أشكلَ عليْهم دخولُ الشهْر فَميَّزوهُ باخْتلاف نَوْع الحوت . وافْتَتَحَ بنزرت معاوية بن حديج[4] سنة إحدى وأربعين." انتهى .

وما ذكر أن النهر الأعظم يقع في البحر عندها ، إن كان عنى بالنهر هذا الحلق الذي وصفنا فذلك ، وإلا فما رأينا ثمّ نهرا عذبا يقع

1) المتوفى بتلمسان حوالي سنة 1011/402. يُنظرُ عنه عبدالوهاب ابن منصور : أعلام المغرب العربي ج 3 ص 13

2) حاتم بن محمد بن عبد الرحمن التميمي ولد بقرطبة وتوفي بطرابلس سنة 1076/469. يُنظرُ عنه : ابنُ فرحون ، الديباج ، 113.

3) موسى بن عيسى الفاسي المتوفى سنة 1038/430. ولد بفاس ورحل إلى الأندلس ثم نزل بالقيروان وتوفي بها . يُنظرُ عنه عبدالوهاب ابن منصور ، أعلام المغرب العربي ج 1 ص 96

4) صحابي أمير، ولي مصر وقاد جيش الفتوح ، توفي سنة 672/52 .

في البحر لا في المدينة ولا في أطرافها. إلا إن وقع في البحيرة بعيدا من البلد فلا أدري. وفي وسط هذه البحيرة منارة وديار بناها الحفصيون وغيرهم للتنزه فيها.

ثم سافرنا منه إلى ميناء غار الملح وأقمنا فيه يوما واحدا. ويدخل منه أيضا لتونس ثم منه إلى مرسى حلق الوادي ، وهو مرسى تونس . وهذه المراسي الثلاثة بنزرت وغار الملح وحلق الوادي كلها لتونس ، إلاّ أن بنزرت أوسع منها كلها ، وغار الملح أفضلها للسفن ولا عمارة فيه يخاف فيه أرباب السفن عليها من العدو، وكذلك حلق الوادي وهو أصْعَبُها للسُّفُن وأقربُها إلى المدينة ، بينَه وبينَ تُونس اثنا عَشرَ ميلا، وبنزرت بينها وبين تونس يوم كامل للمُجدِّ .

وتونس مدينة عظيمة آهلة ، دار علم وعمل وتجارة وفضل . وهي كرسيٌّ مَملكة إفريقيةَ بعدَ القَيْروان . فيها مساجدُ عامرةٌ بذكر الله، وأسواق عامرة بفضل الله مفيدة ، إلاّ أنّها اليوم في غاية الضعف لتوالي الفتن عليها ، أخذها الترك من أيدي بقية الحفصيين ، ثم أخذها النصارى[1] منهم بواسطة من بقي من الحفصيين[2] ، فقسّموا البلاد بينهم وبين من بقي تحت أيديهم من المسلمين نصفين .فسكن النصارى قلعة البلد وماوالاها وسكن المسلمون باقيه، بعد أن هدم النصارى في جانب المسلمين كل ما كان حصينا من باب ودار وحائط . ثم بنوا حصنا آخر منيعا على باب المدينة خارجها ، ثم بنوا مثله في وسط بحيرة ممتدة من المرسى إلى باب المدينة . وعند المرسى حلق من البحر يدخل إليها وبها سمي حلق الوادي وليس هناك واد عذب . ثم بنوا على المرسى

---

1) قاد شارل الخامس، إمبراطور إسبانيا، حملة ضد تونس واستولى عليها سنة 1535، وأقر بها الأمير الحفصي تحت حمايته .

2) نقلَ هذا المقطعَ الإفراني في النزهة ، 122.

حصنا عظيما وقشتيلا منيعا متقنا عجز الترك لما أخذوه عن هدمه . ونظموه بالأنفاض والعدة والرجال والقوة بحيث أيقنوا أنهم ملكوا تلك البلاد وأنه لا يأتي من يقدر على إخراجهم منها . ثم إن الترك انتبدوا وخرجوا إليها فجاؤوهم في أربعمائة وخمسين سفينة من القسطنطينية ومن سائر إفريقية فيها مائة ألف مقاتل وأزيد . فنزلوا عليهم وحاصَروهُم بحَلْق الوادي أربعينَ يَوْماً فأخذوهُمْ عَنْوَة . ثمَّ أخَذوا الحصْنَين الآخرين وقلعة البلد وتملكوا البلاد . فهم بها الآن ، وذلك عام اثنين وثمانين وتسع مائة[1]. وهدموا ما قدروا عليه من القشتيل وأسكنوا في طرف منه من يمنع المرسى ويرعاه رباطا .

---

1) كان دخول العثمانيين حلق الواد يوم 24 غشت 1574 (6 جمادى الأولى 982) .

الفصل الثالث :

من تونس إلى طرابلس

ثم دخلنا إلى تونس ، وزرنا من فيها مدفونا من الصالحين والعلماء ،كشيخ أسلافنا رحمه الله الولي الصالح القطب الغوث مربي السالكين أبي فارس سيدي عبد العزيز بن خليف القسنطيني نزيل تونس دفين مقبرة الزلاج رحمه الله ونفعنا به . وزرنا عمنا أبا محمد سيدي عبد الله بن علي، وكان مع الشيخ هناك ملازما له حتى توفي عنده رحمه الله . وزرنا ابن عرفة[1] وابن عبد السلام[2] وسيدي ماضي[3] صاحب الولي الصالح سيدي أبي الحسن الشاذلي[4] وسيدي فتح الله العجمي[5] والقلشاني[6] وسيدي محرز[7] الذي ألف له أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني **الرسالة**[8] ، وغيرهم من العلماء والأولياء رحمهم الله ونفعنا بهم. وزرنا جامع الزيتونة وما أدراك ما الجامع ؛

---

1) محمد بن محمد بن عرفة المتوفى سنة 1400/803 .إنظر عنه : السراج ، الحلل ، 561.

2) المتوفى سنة 1349/750 . ينظر عنه : إبن قنفد ، شرف ، 81 ـ الونشريسي ، وفيات، 116 ـ إبن القاضي، لقط ، 201 ـ السراج ، الحلل ، 577.

3) أبو العزائم ماضي بن سلطان المتوفى سنة 1318/718.

4) علي ابن عبد الجبار المتوفى سنة 1258/656 ، تنظر ترجمته ولائحة المترجمين له عند :عبد اللطيف الشاذلي ، التصوف والمجتمع ، ص : 152.

5) المتوفى سنة 1445/848.

6) حمل عدد من علماء وصلحاء تونس هذا الاسم وتولى بعضهم قضاءها ، والنسبة إلى قلشانة من عمل القيروان .

7) أبو محمد محرز بن خلف الصديقي المتوفى سنة 1022/413. وهو من أشهر صلحاء تونس .

8) في الفقه المالكي لابي محمد عبد الله بن أبي زيد المالكي القيرواني المتوفى سنة 996/389. ينظر عنه : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1 : 841.

جامع عظيم البركة يعلوه نور ومهابة وانشراح من أثر من سلكه من العلماء والصالحين ، ينبسط فيه القلب وينشرح الخاطر لا يحب داخله أن يخرج منه . مرفوع كله على أساطين وأعمدة من رخام ملون عديم النظير بديع الصنعة مبني كله بحجر مَنْحوت ، له صَحْنٌ فَسيحٌ بديع الحسن بهيج المنظر . وفيه إذّاك إمام خطيب يقال له سيدي محمد الأندلسي رجل على خير، فقيه ، عليه سمة أهل الخير ووقار أهل العلم، وليس في البلد من تقبل عليه النفس ويرتضيه العقل غيره. مشارك في العلوم يتعاطى دراسة فنون من تفسير وفقه ونحو وبيان وغير ذلك . وله صيانة ونزاهة ومعاشرة مليحة . وهناك أيضا المرابط الفاضل السيد أبو بكر بن أحمد بن أبي بكر الأموي ، رجل من أهل الفضل والخير ينتسب إلى أهل الصلاح ويطعم الطعام في زاويته ، ويقبل على الغريب ويكرمه ويؤنسه ويواسيه ويعاشره ، وكذلك أولاده وأهل بيته محبون للخير وأهله . ولهم صيت عظيم في تلك البلاد حرسها الله وأبقاها دار إسلام وإيمان إلى قيام الساعة ، آمين .

قال ابن عبد ربه : تونس مدينة سكنها الروم بعد خراب قرطاجنة افتتحها حسان بن النعمان الأزدي وهو وال لعبد الملك بن مروان . ولما نزل بفحص تونس وأراد قتال الروم بها قالوا : نسالمك على الجزية، فأجابهم إليها. ثم إنهم طلعوا ليلا في مراكبهم بكل ما معهم وتركوا تونسَ خالية ، فدَخَلَها وخرَّبها وبنَى فيها مَسْجداً ، وبقيَ فيها طائفةٌ من المسلمين . فلمَّا بَعُدَ حسان عنها أغارَ الرومُ عَلَى مَن فيها من المسلمين فقتلوهم وأسروهم .فرحل حسان من القيروان إلى تونس، وأرسل أربعين من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان وعرفه بما نال المسلمين بتونس . فعظم الأمر على عبد الملك وعلى التابعين وفيهم من الصحابة أنس بن مالك وزيد بن ثابت رضي الله عنهما فقالا : سمعنا

رسولَ الله صلّى اللهُ عليْه وسلّم يقول : مَن رابطَ برادس يَوْماً فله الجنة حتما. وقالا لعبد الملك أمدّ تلك البلاد وانصرها ، فإنها من البلاد التي نبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها . رادس اسم مرسى تونس ويعرف بحرها ببحر رادس وتونس تعرف بترشيس . فأمر عبد الملك حسان ببنيانها ففعل وسور . وفي سنة أربع عشرة ومائة بنى عبيد الله بن الحبحاب الجامع الأعظم ودار الصناعة.

قال البكري : وأهل تونس موصوفون بدناءة النفوس.

وقال أبو البقاء خالد بن أبي خالد رحمه الله : وصلت إلى حضرة تونس المحروسة بعد اللّتيا والتي، وإخلاق جسمي ومطيتي ، وأنشدت البيتين اللذين لم أخلهما عن فكري ورويتي :

يقولون تونس مصر عظيم ... وأرجاؤها جنة زاهرة
نعمْ هيَ مصْرٌ لأرْبابها ... وللواردينَ هيَ القاهرة

فأرحتُ الراحلةَ من الرحْل، واسْتبْشرتُ بالخصْب بعدَ المحْل ، ولا بُدّ دون الشهد من إبر النحل. فبتنا بها جيران دولاب يهدل، وأغصان تنثني وتعتدل ، وستر الظلام ينسدل . وتلك الحضرة تتلفع بثمارها تلفع الكواعب بخضرة خمارها ، قد سلّت على بساط الروض من المراقب حساما ، وأضحكت ثغور شرفاتها ابتساما. والدولاب يندب من الزهر الذاوي هديلا ويتوسل للروض بدموعه فيخلف له بديلا. فبت أجاوب أنين ذلك الدولاب، وأجاري بدمعي دمعه في الانسكاب، وأنشد فيه لبعض الأعراب :

باتت تحّن وما بها وجدي ... وأحّن من طربٍ إلى نجد
فدموعها تحيى الرياض بها ... ودموع عيني أحرقت خدي

ولما تبدى عن وجنة الأفق عذار الغيهب ، وتوج كسرى المشرق بالتاج المذهب ، طفقت أتمشى في الأماكن المكينة ، وأتخلل سكك المدينة ، وأتعجب من محاسنها المستبينة ، ووضوح قدمها ورسوخ قَدَمها ، وبَهْجتها وانْفراجها ، وانْفساح رُباها وأبْراجها ، ورَوْنَق رياضها ، وتذلل الهموم لفرجتها وارتياضها ، واتساع جنباتها وأفنائها ، وكمالها في البلاد البَحْريَّة وغنائها ، وإيناع حَدائقها المحْدقات ، وإحْرام حجيج الأنس من ذلك الميقات ، فدخلت منها جنة حفت من طرقها بالمكاره ، وعقيلة عَقَلَتْ قَلْبَ الطائع والكاره ، فَهيَ الدميةُ الغرّاء ، واللعبةُ اللعْثاء ، والخريدةُ العَيْناء ، تَزدهي بها المحافل ، ويَجْتبيها القادمُ والآفل . ولله درٌّ القائل :

تونس تؤنس من زارها[1]	وتُودعُه لوعة حيث سارْ
فيغدو ولو حل أرضَ العراق	يَحـنُّ إليها حنين الحوارْ
ويأمل عودا ويشتاقه	اشتياق الفرزدق عود النوارْ

فالتاحَ بتونسَ الأنْس ، وانْشرَحَت النفس، وصَلَحَت الحالُ واللبْس، ووجدتُها كما قالَ أبو إسْحق المربلي :

تونس بالغرب خير دار	تؤنس من حلها غريبا
حللت عقد البعاد لما	حلَلْت من أهلها قريبا

وظللت ألقى أكابر الأولياء ، وآخذ عن العلماء الأتقياء . فأول من لقيته بها من الأولياء الأفراد والعلماء الزهاد الشيخ العالم الولي لله تعالى أبو الحسن علي المشهور بالمنتصر، أفاض الله علينا من بركاته . هو صدر من صدور أئمة الدين وكبير من كبراء الأولياء المهْتَدين ، وقدوةٌ في أفْرادِ العُلَماءِ الزاهدين ، حاملُ لواءِ المعَارف ،

---

1) جاءها في م1 و م2.

ومُحْرِزُ التالد منْها والطارف ، حافظُ للكتاب والسنة ، مُحافظٌ على اتباع الشريعة والملَّة ، وقائمٌ بأعباء صلاح الأمة ، باسطٌ للضعفاء وذَوي الحاجات جناحَ الرأفة والرحمة ، كثيرُ الصيام والقيام ، دائمُ الخلَوات ، مُسْتَجيب الدعوات ، وقوراً صموتاً مَهيباً مُعَظما .

قابلتـه فملئـــــت منـه مهابـة　　　شغلت عليّ فصاحتي وبيانـــي
ولثمـــــت ترب نعالـــه فكأنـمـا　　　قبلت من طربٍ خدودَ غوانـــي

رحل إلى المشرق ووعى الكثير وشأنه كبير، وله من المكاشفات وإجابة الدعوات ما هو أشهر من أن يذكر . حللت بحلاله وانضويت إلى جلاله وخيمت بوارف ظلاله فألفيت فيه ركنا عظيما ومأوى كريما وأباً برا رحيما ، وإماما أوسعني إفادة ونصحا وتعليما . وسبب ذلك أن أخا لي لما خرج إلى وجهته الحجازية عطفته عواطف المقدرة الربانية إلى لقاء شيخنا هذا والتبرك به . فحين وردت موارده وحضرت معاهده وسألت عن مطلع شمسه ومسير يومه وأمسه ، فأخبرت أن الذي نعنيه بالسؤال، قدْ بَانَتْ برحيله الرِّحال ، وسَقَطتُ على الثرَى مُعَفراً ، وأنشدتُ حَيْث سَرَى :

ماذا وقوفك والركـــاب تســـــاق　　　أين الجوى والمـدمع المهــــــراق
ألغير هذا اليـــوم تُخْبَـا أم تـــرى　　　بخلت عليـــك بمائها الآمــــاق
حتى وقد رحلـوا بقلبـك والكـرى　　　إن النـواظر لا الدمــوع تـــراق

ثم نزلت منازله فتمتعت بها دهورا وأقمت ألازمها ليالي وأياما وشهورا ، وجعل الله بصحبة هذا الشيخ انتفاعا وظهورا. ولهذا الرجل الصيت البعيد والباع المديد زهدا وانقباضا ونصيحة لعباد الله تعالى وجودا على ضعفائهم . ووضع له القبول في الأرض فلم يختلف إثنان في فضله .

وثانيه في الفضل والولاية ، والعلم المتسع للدراية ، الشيخ العالم العامل خطيب الجامع الأعظم ، والراقي بقدم الصدق ذروة منبره المعظم، أبو عبد الله ابن عبد الستار نفع الله تعالى به . إمام من أئمة الفروع والتفسير وسراج يقتدى به في ظلمات الدياجير. انتهى من الفضل إلى أقصى أمده وكرع في بحره لا في ثمده ، وصل منزلة مقنعة من علم اللسان ونظرت به عين التعيين كالإنسان أضاءت بأنوار معارفه البلاد وترادفَ عَلى المحَلِّ العليِّ العلمي القُصّاد ، وَعَلا سنُّهُ وسَناه ، وبلغ من وعي المعارف الدينية والأحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه . له جلالة السبق ومهابة الولاية والصدق ، ومكانة القبول عند الخالق والخلق ذو زهد في الدنيا وإعراض عن زهرتها وعزوف عن طلابها . سمعت عليه كثيرا من التفسير والحديث والفروع والأصول وغيرها ولازمته وانتفعت به وشاهدت له كرامات ومقامات. نيف على التسعين. فما ضعفت له قط موارد العبادة ولا انقطعت منه مدرسة التدريس [. . .][1] .

التي استوطنها[2] .

[قال : دخل بعض الشعراء على بعض الأمراء مادحا له بشعر قاله فيه ، فوجد عنده حجاما قد قص من شعره][3] وأجزل له في العطاء ولم يعط الشاعر شيئا ، فقال مرتجلا :

أرى من جاء بالموسى يُوَاسَى وراحة ذي القريض تروح صفرا
فهذا مفلح إن قص شَعْرا وهذا مملق إن قص شِعْرا

---

1) أسقط الناسخ فقرات من رحلة البلوي بقدر أربع صفحات .

2) جملة غير كاملة .

3) زيادة من رحلة البلوي ليستقيم الكلام .

وأخبرني قال : مدح أبو الحسن بن الفضل أحد الوزراء بمراكش وكان أقرع ولم يشبه فقال :

أهديت مدحي للوزير الذي دعا به المجد فلم يسمع
فحاملُ الشِّعْر إليه كمَنْ يُهدي به مُشطاً إلى أقْرَع

وأخبرني قال : أهدى سالم بن قاسم من بني مهنا الحسينين لصلاح الدين بن أيوب مروحةً بيضاء وفيها مكتوبٌ بالأحْمَر :

أنا من نخلة تجاور قبرا ساد مَنْ فيه سائرَ الخلق طرا
شملتني سعادة القبر حتى صرت في راحة ابن أيوب أقرا

وقد كان الرسول بها قال لصلاح الدين خذ هذا فما أهدي لك ولا لأبيك قط مثلها ، فغضب السلطان من هذا الكلام ، فقال الرسول لاتعجل وانظر ما فيها من الكلام ، فلما نظرها وقرأ البيتين قبلها ووضعها على رأسه وقال : صدق الشريف ما وصلتني قط هدية مثل هذه.

ورأى بعضهم أوحد الزمان وفريد البيان ، العديم النظراء والأقران، المرتقي درجة الاجتهاد بالدليل والبرهان ، الشيخ العالم المشاور ، أبا عبد الله بن الحباب حبر بحر حافظ لافظ ذو أبهة وبهاء وحبوة موصولة من علم خالية من ازدهاء وخلقة سمت في مطالع الحسن إلى أبهى كمال وأكمل ابتهاء برع بأحسن الصورة وفرع من الجمال أرفع السورة . فبسق بسوق الغصن الناضر ، وأضحت حدائق محاسنه نزهة الأحداق والنواظر ، انفرد بفني المعقولات والمنقولات واتخذ في علم اللسان والبيان فما يجارى في شيء من ذلك ولا يبارى، وهو فيما عدا ذلك من الفُنون يَفُوقُ الصُّدور ، ويُفيضُ على مُزاحمه البُحُور ، ويحلي من فرائده الطلا والنحور، له تآليف وتصانيف فيها من العلوم صنوف ،

وفي الآذان شنوف ، ولها ظهور على غيرها وشفوف ، وقلائد قصائده تتحلى بجمانها الخرائد ، وتحسد حسنها النيرات الفراقد. وتسربل نور أو أنجم زهر ، أو لجين أو تبر ، أو يواقيت أو در ، أو حصباء بللها نهر، أو شذور رصعت بسطر وشطر .

نظم ونثر في رياض بلاغة   سجد الربيع لبردها الرفراف
لم أدرِ من عجبٍ بها وتعجب   أنظام دُرٍّ أم نظام قواف

كان زمن شبابه وتعلقه بطلب العلم ، واستفتاح باب الفهم ، رئيس إنشاء الدولة الحفصية ، والمستقل بحمل الراية التونسية . فملأ الدلو ومد الرشاء ، وأنال الإنشاء ما تشاء ، وأزال عن جفون الطريقة الأدبية العماية والعشاء ، فلما أحرز في ذلك الفن قصب السبق وحازه وقطع فيه صدر العمر واستقبل أعجازه عطف إلى تعليم العلوم وعكف على تدريس المعدوم منها والمعلوم . فأفاد الأفذاذ والأفراد ، وأمتع الجهابذة والنقاد ، وأسمع الأسماع ما اشتهى كل منها وأراد ، إلاّ أنّه كثيرُ الأنْس ، مُوثرٌ لراحةِ النَّفْس ، قَلَّما يَنْضَبطُ لطالب ، ولا يغتبط إلا بذي فهم ثاقب ، وسهم في العلوم مسدد صائب ، فمجالسه مجالس علم وإيناس ، وتقريب لأناس وإبعاد لأناس . وكنت بحمد الله من الفريق الأول ، لا بالمشكوك فيه ولا بالمتأول . فسمعت منه ، وأخذت عنه ، وأجازني الإجازة التامة ، وكتب لي بخطه وأنشدني لبعض المشارقة يعرض بآخر ينعت بسراج الدين وكان من قبيلة بخيلة فضمنها البيتين وهما :

لنا في البيت من خزف سراج   عراقي فتيلته نحيلة
يضيء لمن تعاهده بدهن   فلا كان السراج ولا الفتيلة

وأنشدني لسراج الدين :

بُنَيَّ اقتدى بالكتاب العـــزيـــز   وراح إليه سريعــا وراجـــا
فما قال لي أف مذ كـــانَ لـــي   لكونـي أباه وكونــي سراجـــا

وخامسهم البحر المتلاطم الأمواج ، والمنهل الذي تروى بعذبه بقاع الوهاد وتلاع الفجاج ، والمجموع الذي نزلت بساحته مفترقات المعالم نزول الماء الثجاج ، قاضي القضاة وإمام الفقهاء والنحاة وربّ العقل الوافر الحصاة : الشيخ العالم العلامة قطب الشورى وعماد الفتيا ، قدوة علماء الإسلام أبو عبد الله بن عبد السلام رضي الله عنه ، رجل نشأ في العفة والصيانة ، وتبوأ ذروة الطهارة والديانة ، وصعد من هضبة التقى على أعلى المكانة ، فلم تعرف له قط صبوة ولا حلت له إلى غير الطاعة حبوة . على أن المسهب في الأوصاف الكريمة، والمشيد بالمناقب المشيدة ، سكيت مع سعيه ومسيء في إحسانه وقاصر على إدراكه ، وهيهات يضرب في حديد بارد ، ويطلب ما ليس له بواجد من رام بيده لمس الشمس ، وتمطى برجله لحاق البرق ، صرف همته العلية وفكرته الوقادة الزكية إلى انتحال فنون العلوم، وافتتاح المكنون منها والمختوم، فَمَلَكَ أعنَّتَها ، وقادَ أزمَّتَها ، وأوْضَحَ أشكالَها ، وَوَسَمَ أغفالَها ، وحَلَّ أقفالَها ، وتلقَّى بالسَّهْل والرحْب انثيالَها عَلَيْه وإقبالَها ، فهو اليوم وحيد الأوان ، وعلامة الزمان ، والمشار إليه بالبيان والبنان . ما قرن به فاضل من العلماء إلا رجحه ، ولا ألقى إليه بينهم سؤال من العلم إلاّ كشفه وأوضحه . عدلا في أحكامه جزلا في إقدامه، مراقبا لله في فعله وكلامه . له صادقات عزائم لا تأخذه معها في الله لومة لائم ، إلى نزاهة عن الدنيا وهمة نيطت بالثريا ولهجة فيها ترقرق ماء البشر فأحيا وحَيّا ، فقابَلَني بخَلْق وَضي ، وخُلُق رَضي . حَضَرتُ مُغْتَنماً ومُلْتَزماً تدريسه الذي هو ضالة الناشي النّاشد وبغية القاصي والقاصد، وطريقة

الرأي الرائد ، وحقيقة الفوائد الفرائد ، فسمعت وانتفعت ، وأخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب[1] الفرعي . فقرأت وكتبت ، وأجازني غير ما مرة وكتب لي بخطه. ومولده سنة ستة وسبعين وستمائة. وسمعت عليه بمنزله جميع كتاب **الموطأ** للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في مجالس كثيرة آخرها ضحوة يوم الجمعة الثالث عشر لصفر من عام أربعين وسبعمائة.

وسادسهم فارس ميدان التسجيل ، المتميز في عتاق تلك الحلبة بالغرة والتحجيل ، المحرز خصل السبق الموجب للتعظيم والتبجيل ، الشيخ العالم المتصوف أبو عبد الله بن عمر أرضاه الله تعالى . علم الجماعة ، وقلم التأييد والاستطاعة ورب الفكرة المطواعة ، والإمرة المطاعة ، ومن له في النظم والنثر القلم الأعلى والقدم الأولى واللفظ الأجْلَى والمورد الأحلى والقدح المعلى والبدائع التي تستفاد وتستعاد وتستملى . وله في الطريقة الصوفية مقام عال ، وأشتات معال وخاطر يَجُولُ في أوْسَع مَجال ، فيُبْرِزُ نفائسَ لآل ، وعرائسَ جَمال ، ويأتي بسحر حلال وبحر زلال بين بديهة وارتجال ووَخْدٍ وإرْقال وانحفاز واستعجال . حكَم مثل الحصى كثرة وخاطر يغرف من بحره ، رحل إلى المغرب والمشرق فعلت روايته وعظمت آيته وكثرت مبالاته بالعلم وعنايته ، فبدا في سماء المعارف شمسا تتجلى بزهر هدايته مشكلاتها ، ولاح في جيد العوارف سلكا تتحلى بدر كفايته لباتها ، وأقام مشتغلا بالعلم سنين، وانعقد النكاح بينه وبين عقائل الآداب بالرفاء والبنين فيلد من مخلّدات فكره خرائد تتهاداها الملوك وفرائد تزدان بها التيجان

---

1) عثمان بن عمر المتوفى 1249/646 . له : منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل ، ومختصره المسمى مختصر المنتهي ومختصر ابن الحاجب. ينظر : حاجي خليفة ، كشف ، 2 : 1256 و1853.

والسلوك ، تحلت به الدولة الأندلسية كما تجلت عنه الحضرة التونسية ، فهو الآن متولي ديوان إنشائها ، ومولى أشطان رشائها . قد استقر عند مَنْ عَرفَ له شأنه ، وعارف بعده وشأوه واقتنى عقد نظمه فزانَه ، وادَّخَرَ مرجانَ نثره وجُمانَه . دخلتُ الحضرةَ المذكورةَ على حين أخذ منِّي البَيْنُ أخذته ، وفلذ من فؤادي فلذته . فتفرست في أدبه الشريق ومذهبه الواضح الطريق ، فكان جنابه العلي مطمح نفسي ومسرح أنسي ومصلح ما نضى من لبسي وأنضى من عنسي ، فكانت فراسة لاح صدقها وأومضَ برقُها ، وسَحَّ سحابُها وهَمَلَ ودقُها. وَلما عجتُ إليْه ، وقصدت منزله للسلام عليه أنشأت بيتين اثنين استأذنته بهما وهما :

ببابك يا مولى الكتابة كاتـــب	أتاك بقلبٍ من أسى البين مفجوع
وحاجته تقبيل يمناك إنهـــا	تؤمن من خوف وتسمن من جوع

فارتاح إليهما ارتياح الصادي لبليل القبول ، ومد لهما يمين اليمن والقبول . ودارت بيني وبينه المخاطبات نظما ونثرا وتكررت بيننا المراسلات والمراجعات قلا وكثرا . ولم أزل مدة إقامتي بتلك الحضرة تحت ظله الوارف وفضله الممدود المطارف . خرج مستريحا في بعض الأزمنة الطيبة إلى بعض جناته التي هي منى النواظر ، وملعب الغصون النواضر ، ومهب الأنفاس العواطر ، وراحة الأبدان والخواطر ، وحلال الحلل التي توشيها أيدي الغمائم المواطر. فما ألم بها حتى وجه إليَّ مع بعض خدمه مركوبا من عتاق الخيل جامعا لضياء الصباح وغسق الليل، تقلني إليه وتحلني لديه . فوافيت والربيع قد أهدى نوافحه، وأسدى لواقحه ، وأسدل ملاحفه، وأسبل مطارفه ، وألان معاطفه ، وأفاض معارفه . ومد بروده وأمال قدوده ، وأخجل خدوده ، وحشد جنوده وحَشرَ بيضَه وسُودَه ، ونشرَ ألويتَه وبنودَه ، وملأ تهامتَه ونجودَه ،

ونظم جواهره وعقوده وأعطى مواثيقه وعهوده. والغمام قد بكى على ميت الروض فأحيا نوره وأضحك ثغره وحدق أحداقه ، وأرخى أوراقه ، وأضفى ملبسه ووشى سندسه . والنسيم قد جر على بساط البسيطة ذيوله ، وأجال بملعبه خيوله ، واستنطق أطياره وشق أنواره ، وأفشى أسراره ، وأذاع شيحه وعراره ، وفضض أنواره ، وذهب أزهاره ونشر درهمَه وديناره ، وحيًّا وردَه وبهاره، وصافح آسَه وجُلناره ، وأطابَ ثناءَه وأخباره . والمذانب تسل السيوف وترى لنفسها على الأنهار الشفوف ، وتخترق من مكللات الثمار الصفوف ، وتدور على سوق الغصون كالخلاخل وتلتوي فيها التواء اللسان المجادل. وتلك السواني تحن حنين الحوار ، وتضرم في القلب المشوق حر الأوار ، وتهيج لوعة الصب المغترب النازح الدار وتفجر من بين أضلاعها أمثال الشفار .

قال الرائس أبو عبد الله بن الحسين :

ومحنية الأصلاب تحنو على الثرى ... وتسقي نبات الترب در الترائب
تعد من الأفلاك أن مياهها ... نجوم لرجم المحْل ذات الذوائب
وأطربُها رَقْصُ الغُصُون ذَوابلا ... فَدراتْ بأمْثال السيُوف القَواضب
وما خلْتها تشكو بتحنانها الصدا ... ومن بين متنيها اطراد المذانب
فخذ من مجاريها ودهمة لونها ... بياض العطايا في سواد المطالب

فحللت منها شرفا وتبوأت غرفا واجتنيت تحفا وطرفا وأقمنا فيها ليالي وأياما آمنين تغازلنا أعين النرجس وتقابلنا خدود الورد وتصافحنا أكف الياسمين :

في رياض من الشقائق أضحت ... يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها ... زهرات تفوق لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيبا ... سرقت حمرة الخدود الملاح

ومما أنشدني هناك لنفسه :

حسن البرية ريـــح عليهـــا فعمّـــا   فكل وجـــه تراه بـدرا أتـمـا

وقال : وحكى صاحبنا الحاج الفاضل أبو زكريا ابن واش الفاسي أن الفقيه أبا جعفر ابن شيخنا الإمام رضى الدين الطبري مر بحرم مكة شرفها الله تعالى ببعض الشيوخ المجاورين البغداديين ، وأبو جعفر إذ ذاك فتى ، فقال له الشيخ : ما الذي تقرأ وبِمَ تشتغل من الكتب؟ فقال له الفتى : **بالتنبيه**[1] . فأنشد الشيخ بديهة :

ومهفهف الأعطاف ساج طرفـــه   يغـــدو علـــى الفقهـــاء للتعليـــم

شغلـوهُ **بالتنْبيـــه** جَهْلا منْهُـــمُ   لـوْ أنْصَفـوا شَغَلُـوهُ بالـتَّنْويـم

وأنشدني وقال لي : دخل الأديب الشهيرأبو بكر بن قزمان[2] رحمه الله بعض البلاد فأعطى نعله ليصلح له وهو مستوفز قد نفذ ما عنده ، فخاطب في الحال بعض الناس من أهل البلد بقوله :

دَفَعتُ قُرقي للقـرّاق يُصلحُـــه   وقدْ تَعَـــذَّرَ قيراطٌ مـن الثمَـن

فامنن على شاعـر خفت مؤونتـــه   قدر السؤال بقدر الناس والزمن

وأنشدني لبعضهم :

خبت نار العلى بعـــد اشتعـــال   ونادى الجود حي علـــى الـزوال

فَقَدْنا الجودَ إلا فـي حَـديـثٍ   وإلاّ فـي الدفـاتـــر والأمَـال

---

1) يوجد أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفا من التراث يبدأ عنوانه بـ"التنبيه" ولعل المقصود هنا : تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا عليه السلام ، للمرادي ، عبد الجليل بن محمد . ينظر: البغدادي ، كشف الظنون ، 1 : 486.

2) محمد بن عيسى ، إمام الزجالين في الأندلس ، توفي سنة555/1160 . ينظر عنه : الزركلي ، أعلام ، 6 : 332.

ولو أني ملكت الأمر يومـــــا لما حـــــاربت إلاّ بالسؤال
لأنّ الناس ينهزمون مـــنـــه وقد ثبـتوا لأطراف العوالـي

وقرأت وسمعت عليه جميع **صحيح** الإمام مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى ، وأجازني الإجازة التامة وكتب لي بخط يده رحمه الله .

وسابعهم وموتر شفعهم إمام المعارف وروضة الأدب الناعمة الأفنان الرائقة المطارف الفائزة من المجد المؤثل بالتالد والطارف ، الشيخ العالم الولي أبو عبد الله بن حريز فرع الأصل العزيز وطبع الأدب المحجل أسلاك الدر وسبائك الإبريز المعترف له في ميدان البلاغة وفُرسان البَراعة بالسبْق والتبْريز ، بسق في شجرة قرشية أموية كريمة الأعراق ساطعة الإشراق طيبة الأثمار والأوراق ، وتفتح نور بيانه في جَنانه من لسانه ، واجْتَلَى كالزهر في آذاره ونيسانه ، وَتَرَقَّى بأحَاديثه وإحسانه من رجل برع في الطرق الأدبية والصوفية ونبغ في العلوم العقلية والنقلية وفرغ لها بالنفس العصامية والهمة الأوسية والفكرة الإياسية فخلف فيها نجوما رافقت الإنكدار وبدورا فارقت الأبدار وشموسا دار على كسوفها من الزمان مادار ، فعلا بهم قدمه وأضحى وجمهور العالم خَوَلُهُ وخدمه . فاقتصر في منزله الكريم على عبادة ربه وإفادة صحبه ، سارحا من فنون علمه في روضات جنات ودرجات مقامات . وسائحا من عيون مجلداته في بحور أمهات، وفيض منح ملهمات ، منقبضا عن الناس إلاّ عن المحتاجين إلى مواساته والمتفرغين إلى إفاداته ومؤانساته فتراكم الخلق عليه تراكم الجراد المنتشر بمجلسه في داره بتونس يجتمع إليه فيه أصناف أهل العلم وطوائف أولي التقى والفهم . وهو اليوم هناك كعبة للعلوم يحج إليها ، وعمدة للمحاسن يعول عليها . قد جعله الله تعالى محببا للأنفس وسببا للتأنس وأودع فيه منْ صدْق المصاحَبَة ، وحُسْن المراغَبَة ، وكثْرَة الخشيَة لله تعالَى

والمراقبة . سَلَكهُ على أحْسن الأسْلوب ومَلكهُ ثَمرَ الأنْفُس وَحَبَّ القلوب، فهو كما كان محمد بن سيرين[1] رضي الله عنه ، يداعب ويضحك حتى يسيل لعابه فإذا أردته على شيء من دينه كانت الثريا أقرب إليك من ذلك :

سماحة لا تباري الريح غايَتَـهـا جودا ، ولا تتعاطى شأوها السحب
وهيبة لو رآها الدهر ماثـلـة ولى وللرعـب في أحشائه صخـب

إلى مـا رزقـه الله تعـالى من القـريحة الوقـادة والفطنة النقـادة ، والمشارب الذوقيـة الوجدانية والعنايات السلطانية والحمايات العامرية ، والعطايا الحاتميـة ، والرتب العليـة ، والزهد في الدنيـا الدنيـة ، وبعد الهمـة ، والمشـاركة للخاصَّـة والعـامَّة منْ هذه الأمَّة ، وإجـابة الدعْوَة، والخلو من الزهو والنخوة . وأنا مـن رأيت نجاح دعـواته ، وصـلاح حالي بالتماس بركاته ، ولازمته وترددت إليه كثيرا فكنت أجد في مجالسته فوائد تنسي الأوطان ، وأرد فـي موانسته موارد تحيي الهـائم الظمآن . قلت له يومـا : يا سيـدي علم الله تعالى أني أحبك فـقال لي : أبشر، إنِّي رأيْتُ رسـولَ الله صلَّى اللهُ عليْـه وسَلَّمَ في النوم ، فـقـالَ لي : "يا مـحـمـد رزقك الله التـقوى وحبّبك إلى خلقه وجعل مَن يـحبّك من عباده المؤمنين ". قال رضي الله عنه : فمن علمت أنـه يحبني علمت أنه من عباده المؤمنين. سمعت من لفظه رضي الله عنه جميع تأليفه البديع المزْري بـرَوْض الرُّبى وزَهر الربيع ، الذي سَـمَّـاهُ **مَـهبُّ نَواسم المدائح ، ومَصَبُّ غمائم المنائح** في مَدح أحَد حجاب الخلافة الحفصية . ونقلتُه من خطه وصححته عليه ، وسمعت وقرأت عليه وأجازني وكتب لي بخطه .

---

1) تابعي ، تفقـه وروى الحديث واشـتهر بالورع . توفي سنة 729/110 . ينظر عنه : الزركلي ، أعلام ، 6 : 154.

ومولده في الثاني عشر لشهر ربيع الثاني عام اثنين وثمانين وستمائة . وأخبرني رضي الله عنه قال : حضرت محتفلة عند بعض الأصحاب أنشد فيه المسمع قصيدة ابن صردر العراقي فأعجبت بها وما أتمها إلاّ وقد أشربت فؤادي من سمعة واحدة ، وعرضتها في الحين على من حضر وهي :

لحاجة نفس ما يفيق غرورها — وحاجة صب ليس يفضى يسيرها
أُكَفْكِفُها هطلا على كل منزل — فلو أنها أرْضٌ لغارت بحورها
وما ينفع العينَ التَّسَهُّدُ والبكا — إِذَنْ تَعرفا لي مقلة أستعيرها
وقفنا صفوفا بالديار كأنها — صحائف مزجاة ونحن سطورها
يقول خليلي والظباء سوانح — أهَذي التي تهوى، فقلت: نظيرها
لئن أشبهت أجيادها وعيونها — لقد خالفت أعجازها وصدورها
ووالله ما أدري غداة رمينني — أتلك سهام أم كؤوس تديرها
فإن كُنَّ من نَبْلٍ فأين حفيفها — وإن كن من خَمْرٍ فأين سرورها
وإنْ قلتما أنْ ليْس في الأرْض جَنَّةٌ — أما هذه فوق الركائب حورها
يعز على الهيم الخانس وردها — إذا كان ما بين الشفاه غديرها
أركْبَ الحما قلْ لي بأيِّ وَسيلَةٍ — تَوَسَّلْتَ حَتَّى قَبَّلَتْكَ ثغورُها
تنال الذي ما شئت منها وتشتهي — فَصفْ لي رَيَّاها فأنتَ خبيرُها
وما لي بها علمٌ فَهَلْ أنتَ عالمٌ — أأفواهُها أولى بها أمْ نحورُها
يفوح النسيم الرطب من كل منزل — وما كل أرض يستطاب عبيرها
وإنَّ فروعَ البان منْ بَطْن وَجْرَة — شهيٌّ إلينْا ظلُّها وحرورُها
ألذ من العذب الجني عرارها — وأشهى من الشهد المصفى رحيقها
على رسلكم في الحب إنا جماعة — إذا ظفرت بالحب عف ضميرها
لعمرك ما سحر الغواني بقادر — على ذات نفس والمشيب نذيرها
وما الشعرات البيض إلاّ كواكب — مطالعها رأس وفي القلب نورها

هكذا أملاها عَلَيَّ بلفظه ، رضي الله عنه ، وقرأتها عليه بلفظي، مُصَحِّحاً لها مرة ثانية .

وأنشدني أيضا بيتين قال: هما لأبي الحسن ابن الزقاق رضي الله عنه.

وحبب يوم السبت عندي أنه ينادمني فيه الذي أنا أحببت
ومن أعجب الأشياء أني مسلم حنيف ولكن خير أيامي السبت

وأرجع إلى تتميم ما بدأت عن الإعلام بفضل هذا الفاضل وجلالته ، والإلماع من ذكر روايته والرواية عنه بما لا يخشى من ملالته ، فأقول : أني قرأت عليه جميع تأليفه في العروض الذي سمّاه **بالروض الأريض في علم القريض** ، وجميع تآليفه في الأدب الذي لخص فيه رسالة **أحكام صنعة الكلام** من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله ابن عبد الغفور ، وكتبها لي بخطه ، وأجاز لي جميع مارواه وألفه من تآليفه التي أبدع فيها تلخيص **مشكل الحديث** لابن فورك ، وكتاب **حديقة الناظر في تلخيص المثل السائل** في علم البيان ، وشرح كتاب المصباح لابن مالك ، وكتاب **إيضاح السبيل والقصد الجليل في علم الخليل** في شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية . وهو حافظ مجيد ، وحامل مجيد ، وناقل سديد وناقد شديد ، وعالم فريد ، ومدرس مفيد، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقل فيه لوابل كرمه الطل والوبل ، إن واخاك رأيت الأنس قد ارتدت ذواهبه ، وعادت مذاهبه ، ووجدت الزمان قد لانت صعابه ، وبانت شعابه ، وأولاك ودادا أخلصت سريرته ، وحمدت في شرعة الوفاء سيرته ، فلا حمد إلاّ ما قد تصفحته له صفحات الفلا ، ولا عهد إلاّ ما حفظه وإلا فلا .

حسن الوفاء موشح بخلائق تجرى مع الماء الزلال إذا جرى

رحل من بَلَده تلمْسان قَبْلَ أن يُلمَّ بها الحصار ، ويُلقي ريحَها الإعْصار ، ويَشوبَ الزمانُ صَفْوَها بالأكدار ويُحكمَ فيها الخطوبَ والأقْدار ، ويُديرَ عَليْها من البلاء والمحْنَة ما أدار ، فكانتْ منْه فعلةٌ سنية ، ونقلة سرية ، وفراسة إياسيّة ، وألمعية عباسية ، فدخل الحضرة مُشمِّراً عنْ ساعد ، ومُقتاداً الجدَّ بقائد ، فطلعَ في آفاقها كوكباً ورسَى في ساحتها كبكبا وجال في ميدانها ركضا وخببا ، وتعلق بعروتها الوثقى سببا فسببا ، ولم يزل يفحص في هذه المسالك على الكمال ، ويستقي من مناهلها العذبة السلسل الزلال إيثارا للرتب المنيفة ، واستطلاعا للمقامات الشريفة ، فبلغ المنتهى ، وخول ما اشتهى ، وحل في الحظوة فوق السهى ، فهو الآن أحد المدرسين الأعلام وأوحد من برع في علمي البيان والكلام ، وأوجد الناس للدّر إذا خاض بحر العلوم بسوابح الأقلام . أديب المصر ونحويُّه ، وعروضيُّه وبيانيه ، وحكيمه ومنطقيه، وعدديه وفرضيه ، وأصوليه وجدليه ، وتعاليميه وارتماطيقيه، جمع أشتات هذه الفضائل وكان فيها صائلا ليس بضائل ، وعلم اللغات وسائرها ، وفك الأعاريض ودوائرها إلى إحاطة بعلم التفسير والحديث . أما الفروع والأصول فبه كنت فيهما أصول ، ولم تر عينى قط شرقا وغربا أسرع منه نسخا وكتبا ، ولا أقرأ لكل خط ما عسى أن يكون صعبا ، على جودة خطه وصحة نقله وضبطه ، وإتيانه للسحر الحلال بأي شيء أخذ من الأرض لا يميل بشقة ولا يفطة .

كالحية الرقشاء إلا أنه	يستنزل الأروى إليه تلطفا
يهفو به قلم يمج لعابه	فيعود سيفا صارما ومثقفا

دخلت الحضرة تآليف غيرها مما عرف بحمد الله قدرها ، واشتهر على الألسنة ذكرها ، وسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر. وأنشدني وقال : أنشدني الشيخ الإمام الأوحد

أبو عبد الله محمد بن راشد رحمه الله تعالى ، قال لنفسه معين الدين ابن تولواء التوزى ، رحمه الله تعالى ورضي عنه :

يا أهل مصر رأيت أيديكم عن بسطها للنوال منقبضة
لما فقدت القرى بأرضكم أكلت كتبي كأنني أرضة

وأنشدني لغيره :

لحا الله مصر وسكانها وفتت أكبادهم بالحسد
متى يرتجي مفلس عندهم غنى ، وعلى كل فلس أسد

وأنشدني الشيخ المحدث الفاضل فتح الدين بن عمر بن سيد الناس رحمه الله تعالى :

بالله إن جزت بواد الأراك وَقَبَّلَتْ عيدَانُهُ الخُضْرُ فاكْ
فابعث إلى المملوك من بعضها فإنني والله ما لي سواكْ

وأنشدني لبعضهم :

جعلت هديتي لكم سواكا ولمْ أقْصدْ به أحَداً سواك
بعثت إليك عودا من أراك رجاءَ أن أعود وأن أراك

وأنشدني قال : أنشدني الإمام الأوحد ناصر الدين أبو علي منصور بن عبد الحق المشدالي رحمه الله ، قال أنشدني أبو عبد الله بن أبي الفضل السلمي المرسي لنفسه :

عابوا الجهالة وازدروا بحقوقها وتهاونوا بحديثها في المجلس
وهي التي ينقاد في يدها الغنى وتجيئها الدنيا برغم المعطس
إن الجهالة للغنى جذّابةٌ جَذْبَ الحديد حجارةَ المغنطس

وأنشدني له أيضا :

تنقّل فلذّات الهوى فـــي التنقــل وَرِدْ كل صاف لا تقف عند منهل
وإن سار من تهوى فسر عن جنابة ولاتسكبن دمعــا على مترحــل
ولا تلتفت قول امرئ القيس إنــه ضليـــل ومن ذا يهتدي بمضلل
ففي الأرض أحباب وفيها منــازل فلا تَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل

وأنشدني للقاضي الخطيب العالم أبي عمر بن إدريس ، أخي أبي بحر صفوان ابن إدريس في أبي العباس الفضل بن أحمد بن الفضل، أحَد عُلماء مُرْسية ووُزَرائها ، وكانَ أوحدَ زَمانه في حُسْن الصورة :

أطاع فؤادي حبه وعصى العـــذلا وذاق الهوى مُرّاً ولكنه استحلى
يقولون أقصر وانس فضلا ولم أكن لأفعل هذا ساء قولهم فعـــلا
يكلفني العذال مـا لا يحـل لـي أأنسى، وقال الله لا تنسوا الفضلا

وأنشدني له أيضا :

وأغيد حظي منه ما اختلس الطرف يميل بقلبي نحوه الحسن والظرف
غزال ضعيف اللحظ وإنما جنـــي ضعف صبري في الهوى ذلك الضعف
هو الخشف الا أنه كلمـــا رنـــا جزعت وفي المعتاد أن يجزع الخشف
أرى هجره وقفا عَلَيَّ فهـل غـدا جزاء على أني علـى حبه وقف
سلوه برفـق هـل جنيـت جنايـة فإن قال أي فاسألوه عسى يعفو
ويصرفني من جـوره نحـو عدلـه فها أنا لا عَـدْل لدي ولا صرف
سأثنيه نحـوي بالقوافـي فإنـهـا نسيم ويحكي الغصن لي ذلك العطف
قنعت بـأن يهدي إلـيَّ سلامـه إذا لم يكن زهر من الروض فالعرف

وأنشدني لأبي الربيع سليمان بن أحمد الينقي أندلسي استوطن المشرق ومدح السلطان الكامل.

لولا تحديه بآية سـحره ما كنت ممتثلا شريعة أمره
رشا أصدقه وكاذب وعده يبدي لعاشقه أدلة عذره
ظهرت نبوة حسنه في فترة من جفنه وظلالة من شعره

وأنشدني عند الوداع والقطعة لعلي بن هاشم المروزي :

يا موقد النار يذكيها فيخمدها قر الشتاء بأرياح وأمطار
قم فاصطل النار من قلبي مضرمة بالشوق من مهجتي يا موقد النار
ويا أخا الذود قد طال العناء بها ما تعرف الرى من جذب وإقتار
ردْ بالعطاش على عيني ومحجرها تروي العطاش بدمع واكف جار
يا مزمع البين لا كان الرحيل فإن كان الرحيل فإني غير صبار
إن غاب شخصك عن عيني فلم تره فإن ذكرك مقرون بإضمار

فهؤلاء سبعة كسبعة الدرر في علو المقام أو كسبعة الأيام المحيطة بأزمان أكوان الأنام . وآثرت انتقاءهم من أولئك الجهابذة الأعلام ، واقتصرت في عددهم على أحب الأوتاد إلى الملك العلام. ولما أراد الله سبحانه وتعالى أن يسعدني بالأخذ عنهم ويسعفني في الاستفادة منهم، قيض لي، بل مَنَّ به علم غيبه ووفور جوده وصيبه ولطائفه الخفية وعوارفه الإلاهية ، صديقا صادقا في المحبة ، موافقا على الصحبة ، حافظا في الحضور والغيبة .

خير إخوانك المشارك في المر وأيْنَ الشريكُ في المرّ أيْنا
الذي إن حضرت سرك في الود وإن غبت كان سمعا وعينا

هو الشيخ الفقيه العالم أبو العباس النقاوسي ، نفع الله بمودته، فَقَلّت الحسرة وقد كساني البين تلك الغمرة فنبهني منه أخ شقيق فرج عني به كل أزمة وضيق . وقد كان يتشوقني على السماع ، وينشط للاتصال في الاجتماع ، فلما علم بوصولي وصل في لمة من إخوانه

الأعلام ، وأعيان ذلك الصقع المتصلين بالسؤدد اتصال الألف باللام. فالتقينا هناك التقاء النفس والأمل ، وانتظمنا انتظام القول والعمل ، وأقمت معه في منزل واحد وأمل وافد ، لا يستأثر أحدنا بمقسوم ، ولا ينفرد على الآخر بمكتوم ولا مختوم ، وهو في ذلك يؤنسني غاية الإيناس ، ويأخذ بضبعي إلى معرفة أكابر الناس ، ويفيدني بأجلّ الفوائد ، ويأتي من مرسوم فضائله بالزوائد ، الخارقة للعوائد . وكثيرا ما كنتُ أعجبُ منْ تَطلُّعه إلى المعالي وتحصيله ، وأحْذو حَذْوَهُ في جملته وتفصيله ، واقتفاء سننه في دقيق الأمر وجليله. والمرء على دين خليله . وما زلنا بتلك الحضرة نجتلي أنوار المحاضرة. ونجتني نوار المذاكرة ، إلى أن جاء يوم الفراق ، باجتذام ذلك التلاق . واخترام تلك الأعْلاق . فسُبْحانَ مَن أوجدَ تلك العُهودَ ثمَّ أعْدمَها ، ووصلَ تلك الأسبابَ ثم جذَمَها . وهذه شيمةُ الليالي في إعْقاب تجميعها بتفريقها. وإشراقها كل نفس بريقها .لا تجمع شملا إلاّ شَتَّتَتْه ، ولا تصل حبلا إلاّ فتتته . من أطاعها عصته ، ومن داناها أقصته ، ومن وصلها قطعته ، ومن نزع إليها نزعته ، ومن أرضاها أغضبته وأحرجته ومن سكن دارها أزعجته وأخرجته . والغبطة مع ذلك بها شديدة ، والآمال فيها على أنها دار البلا جديدة حتى كأن حقيقة ما يعلم من استحالتها ارتياب . والرحلة عنها إليها إياب . لقد حق أن يرفضها البصير ، ويعدل لما إليه المصير . ونسأل الله في أمره فنعم المولى ونعم النصير . ألهمنا الله طريق إرشادنا ، وأعانا على الإعداد لمعادنا . وقضى في العاجل والآجل بإسعادنا ، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

انتهى النقل .

[إن ترجمتها هذا من عمل أهل ... وقيل إن ذلك الماء جلب في أربعين سنة ، ولو قيل في أربعمائة سنة لكان أعجب .][1]

ثم سافرنا من تونس وجزنا على رأس أدار ، وهو جبل داخل في البحر ، وهو مخوف جدا يكمن عنده النصارى وتتخذ فيه السفن كثيرا لأنَّ جُزُر مَالطةَ وصقلّيَّةَ قَريبةٌ منه . يَقولُ البَحْرِيُّون في كلامهم من أهل تونس: من جاز رأس أدار يهيئ الفدية في الدار ، أو نحو هذا. ثمَّ بَعْدَه قلنبيَّة وهيَ مَرْسَى مَليحُ عَلَيْها قَلعةٌ خَربةٌ الآن ، ثمَّ أرْسَيْنا بميناء سوسة وأقمنا بها يومين ، وهي مدينة مسورة سورها متقن.وهي صغيرة ضعيفة العمارة وبها جامع مليح فسيح . وكانت في القديم يرغب العلماء في سكناها . وبها عدة فقهاء منهم يحيى بن عمر[2] من أخيار مذهب الإمام مالك. ويذكرون أنه هو المدفون خارج بابها البحري. وبها أيضا الفقيه عبد الحميد بن محمد بن الصايغ مدفون خارجها في شرقها ، وغيرهما .

ثم سافرنا منها إلى المنستير وهو قريب من سوسة على رأى العين، وكانت في القديم مدينة عامرة بالعلماء وطلبة العلم ولها رباط منعزل لأهل العلم كهيئة المدرسة إلا أنه أوسع مثمن البناء مرتفعُ فيه مساجد للصلاة وبيوت للطلبة ومخازن واسعة . كان في الزمان القديم مأوى للعلماء ومقصدا لطلبة العلم وله أوقاف كثيرة في كل بلد من بُلدان إفريقيةَ والأندلُس تُرْفَعُ إليْه غلاتُها وتُختَزَنُ فيه قُوتاً لأهْل العلم . وقد خرب في هذا الزمان وتغيّر وتساقط ، إلاّ أنه مازال هو أحصن من البلد يلجأ إليه أهل البلد ويتحصنون فيه إذا دهمهم النصارى من البحر، يمنعون فيه أولادهم هو أمنع لهم من ديارهم.

1) سقط ما بين المعقوفين من جميع النسخ إلا م 1 . ويظهر أن بتراً في الأصل حصل.

2) يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي، أصله من جيان ورحل إلى المشرق ثم استوطن سوسة وبها توفي سنة 902/286 . ينظر : الزركلي ، أعلام ، 8 : 160.

ذكر القاضي عياض في **مداركه** في رسم أبي محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبان ، رضي الله عنه ، أنه أحصى من حضر هذا الرباط في موسم عاشوراء وكان سبعين ألفا . وأنه رأى أيضا ربَّ العزّة في المنام فقاله له : يا عبدي تكون بالمغرب فتن كقطع الليل المظلم لا ينجو منها إلاّ سوسة والمنستير وما والاهما . فكان ابن التبان إذا حَدَثَ أمرٌ بالقَيْروان فرَّ إليْها لذلك، واللهُ أعْلم ، يَرغَبُ علماءُ إفريقيةَ في سُكناهُما وَلا يَرَوْنَ بَيعَ دُورهما . وبهذا البلَد قَبْرُ الإمام أبي عَبْد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري[1] نزيل المهدية أصله من مازر [2] بفتح الزاي وكسرها مدينة بجزيرة صقلية أمام بلاد إفريقيا وما وراءها من المغرب. يحكى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال : يا رسول الله يُلقبوني الإمام ولم أتسبب في ذلك ، أحقّ ما يَدْعوني به ؟ فقالَ لي : وَسَّعَ اللهُ صَدْرَك للفتْيا . وكانَ آخرَ المشتغلين بإفريقيا بتحقق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر . أخذ عن اللخمي وعبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ وغيرهما . وكان يُفْزَعُ إليْه في الفَتْوى في الطبِّ ، كما يُفْزَعُ إليْه في الفقْه . ويُحْكَى أنَّ سبب اشتغاله بالطب أنه مرض فكان يطبّه يهودي فقال له : مثلي يطب مثلكم ؟ فأي قربة أتقرب بها في ديني مثل أن أفقدكم للمسلمين. فمن حينئذ اشتغل بالطب . وهو حجة في كل ما تكلم فيه لم يكن للمالكية مثله. توفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة . قال الذهبي[3] :

---

1) محمد بن علي بن عمر التميمي المتوفى سنة 1141/536. ينظر عنه : الزركلي ، أعلام، 6 : 277 .

2) هي مدينة Mazzara بجزيرة صقلية اليوم .

3) محمد بن أحمد بن عثمان ، الحافظ المؤرخ المتوفى سنة 1349/784. من مؤلفاته : سير النبلاء، تذكرة الحفاظ .

وله ثلاث وثمانون سنة . وكان حسن الخلق مليح المجلس أنيسه كثير الحكايات . قلمه في العلم أبلغ من لسانه ، قيما على فنون كثيرة من العلم ، رحمه الله تعالى . قبره خارج البلد إلى جهة المغرب على طرف البَحْر تَرسُو السفُنُ تحتَه. وتحتَه بقُرب ماء البَحْر بئرٌ خصه اللهُ تعالَى بعُذوبة الماء دونَ ماء سائر تلك البلاد القَريبَة كلّها ببَركَة ذلك الإمام ، يقصده أهل السفن للاستسقاء منه من كل جهة .

وفي هذا البلد أيضا قبر داخل البلد تحت سور الرباط خارجه ذكرَ لنا أهلُ البلد أنه قبرُ الإمَام الفَقيه أبي بَكر مُحَمد بْن عَبْد الله بن يونس التميمي الصقلي . فزرناه على شك منا فيه وعدم الثقة بقولهم . توفي هذا الشيخ في عشر بقين من ربيع الأول أو الآخر سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، رحمه الله .

أتينا المنستير بكرة يوم الجمعة ، وصلينا الجمعة . ثم سافرنا منه إلى مرسى المهدية. وهي مدينة مسورة ، دارَ بها البحر كلها إلاّ طرف يسير متصل بالبرّ من جهة الجنوب ، فيه بابها . وهذا البلد ذكرُه سائرٌ في الآفاق ، وصيتُه أعظم من مرآه . وفيه يحق أن يقال تسمع بالمعيدي خَيْـرٌ منْ أنْ تَراه . وهوَ الآنَ بلقعٌ خَراب ، عَلَى كلّ جدار منْهُ بومٌ أوْ غُراب ، لا أنيس فيه ولا مجيب ولا مجاب ، بل صار مأوى وملعبا للثعالب والذئاب . أضر بها النصارى وهدموا بعض سورها الداخل في البحر . وأول ما دخلها النصارى عام ثمانين وثلاثمائة ، في أيام تميم ابن المعز العبيدي بها ، ثم لم تزل بيد المسلمين إلى أن خربت في هذا الزمان الآخر .

قال ابن عبد ربه في العقد : مدينة المهدية محدثة ، بناها المهْدي عبيدُ الله المعروفُ بالفزاري ابْتَدأ بناءَها يَوْمَ السَّبْت الخامس من ذي القعدة سنة ستة وثلاثمائة ، وتم له بناؤها . فانتقل إليها وسكنها سنة

ثمان وثلاثمائة . وسبب بنائه لها أنه لما قتل أبا عبد الله الشيعي القائم بدعوتهم وأخاه أبا العباس ، نظر في القيروان واتساعها ، فعلم أنها لا تمتنع على من رامها . مع ما رأى في علم الحدثان أنه لابد من قائم يملكها ويستبيحها ، فارتاد موضعا يبني فيه بلدا حصينا ، فطاف على سواحل إفريقيا إلى أن وجد موضع المهدية ، فبناها وتأنق في تحصينها وسميت بنسبتها إليه . وجعل مصراعي بابها من مائتَيْ قنْطار من الحديد الخالص دونَ خَشَب ، وإنما ألواحُها وأذراعُها وعضائدها حديد . وهي من أعاجيب الدنيا ، وجعل لهما قاعدتين عظيمتين من زجاج ليسهل حلها وسدها لأن الحديد يصدأ فتصعب حركتها والزجاج لملوسته يعين على حركتها ومع أن الحديد لا يؤثر فيه شيء على طول الأزمان ولا تغيره الأرض . ولما وضع بابها أمر راميا رمَى عَنْ قَوْس شديدة ونَظرَ إلى مَوْضع السَّهْم في الأرْض منْ جهَة المغرب ، فقال : إلى ذلك الموضع يصل القائم صاحب الحمار الذي يحصر هذه المدينة. فكان ذلك هو أبو زيد مخلد بن كيداد النكاري المحاصر لها في مدة القائم أبي القاسم ابنه سنة ثلاثين وستمائة . ولما وصل أبو زيد إلى ذلك الموضع وقف فكانت الهزيمة عليه في ذلك اليوم . وأعد فيها المهدي ما لاحد له ولا مقدار من الطعام والإدام والمال والعدد ، وكل ما توهم أنه يحتاج إليه . وبلغ السعر فيها حين حصار أبي زيد لها القمح كيل بنصف دينار والشعير ثلاثة بنصف دينار ، ونزل أبو زيد في محاصرته لها بفحص ترنوط على ستة أميال منها . وفي كتاب الحدثان إذا ربط الخارجي خيله ببرقوط[1] لم يبق لأهل السواد محلول ولا مربوط، والسواد هو البادية، وفيه الويل لأهل السواد من مخلد بن كيداد.

وتوفي أبو القاسم القائم في محاصرة أبي زيد، على أنه قائد من قواد أبيه حتى هزمه وقتله في قلعة أبي طويل سنة خمس وثلاثين،

---

1) كذا في جميع النسخ ، والصحيح ترنوط.

وتوجه إلى قيصرة فأصلحها ثم رجع إلي المهدية في آخر ذي الحجة من السنة وأقام بها مُحرما سنة ست وثلاثين ، وانتقل في آخر صفر إلى رقادة من مدينة القيروان فاستقر بها بقصره المعروف بالمنصورية . انتهى .

ويحكى أن المهدي لما بنى المهدية قال: الآن أمنت على الفاطميات يعني بناتهم . إذ كانوا هم العبيديون ينتسبون إلى الشرف ويقولون عبيد الله بن جعفر ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقيل هو دعي إلى هذا النسب . وقد أفتى بعض العلماء بكفر بني عبيد وأنهم على غير الإسلام ؛ منهم أبو بكر الأبهري[1] والقابسي والجبنياني وغيرهم . قال أبو عبد الله بن موسى الكلاعي في وصيته التي كتب بها من بجاية لولده رحمهما الله :

وطاعة من إليه الأمر فالزم ... وإن جاروا وكانوا مسلمينا
وإن كفروا ككفر بني عبيد ... فلا تسكن ديار الكافرينا

وهذه الوصية من أنفع ما يحفظ وأجله ، جمعت الآداب الكثيرة والأخلاق الحسنة .

ثم سافرنا منها إلى صفاقس . وهي حصن مسور في أرض قفراء جدبة يابسة بيضاء لانبات فيها . وقبالتهم في البحر جزيرة قريبة فيها رياضهم وأشجارهم وثمارهم ونخيلهم ، يقطعون إليها بالصنادل وهي المراكبُ الصغارُ التي تَسَعُ من العَشَرَة أنْفُس إلى عشْرين ، في بحر قصير قريب الأرض لا تجري فيه السفن الكبار. وذلك من الأسباب التي منع اللّه بها بلادهم وبلاد جزيرتهم من النصارى دمرهم اللّه. وبهذا

1) محمد بن عبد الله المتوفى سنة 986/375. ينظر عنه : الزركلي ، أعلام ، 6 : 225.

الحصن قبر الإمام أبي الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي[1]. وهو فقيه فاضل دين متقن ، ذو حظ من الأدب والحديث، حسن الخلق ، قيرواني نزل صفاقس وتفقه بابن محرز وأبي اسحاق التونسي والسيوري وغيرهم . وتفقه به جماعة منهم الإمام أبو عبد الله المازري وأبو الفضل ابن النحوي[2] والكلاعي وأبو علي وعبد الحميد الصفاقسي . وله تآليف حسنة مفيدة من أحسنها تعليق على المدونة مفيد سماه : **التبصرة** . عمر بعد أصحابه فحاز رياسة إفريقيا جملة وبعُد صيتُه بها . توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة بصفاقس ، وقبره بها معروف رحمة الله عليه .

ثم سافرنا بعد إقامة يوم وجزنا على قابس وما دخلنا إليه لأنه في جون كبير داخل في البر يقع فيه نهر قابس . قال ابن عبد ربه : قابس مدينة آهلة بينها وبين القيروان تسعة أيام بينها وبين نفزاوة ثلاثة أيام . وبينَ نفَزاوةَ والقَيْروان ستَّة. ومنْ نَفزاوةَ يُسارُ إلى بلاد قسطيلة . وبينهما أرض سواخة لا يهتدى إلى الطريق فيها إلاّ بخشب منصوبة. فإن ضلّ أحد يمينا أو شمالا ، غرق في أرض تشبه الصابون ، قد هلك فيها عساكر وجماعات . وتتصل هذه الأرض السواخة بمدينة غدامس .

قال ابن بطوطة في **رحلته**[3] : قابس مدينة من بلاد إفريقيا بينها وبين القيروان أربع مراحل وتعد من البلاد الجريدية ، وبينها وبين طرابلس ثمانية أيّام . وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور حجر جليل من

---

1) المتوفى سنة 1085/478. ينظر عنه : الزركلي ، أعلام ، 4 : 328.

2) يوسف بن محمد التوزري التلمساني المتوفى سنة 1119/513.

3) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . منشورات أكاديمية المملكة المغربية ، 1997 ، في خمسة أجزاء. قدم له ووضع خرائطه وفهارسه الدكتور عبد الهادي التازي .

بناء الأول . ولها حصن حصين وأرباض واسعة وفيها فنادق وحمامات . وقد أحاط بجميعها خندق كبير، يجرى إليه الماء ، إذا خافوا من نزول عدو عليهم ، فيكون أمنع شيء . ولها واد يسقي بساتينها وأرضها ومزارعها . وأصل هذا الوادي من عين فوارة في جبل بين القبلة والغرب وهو يصب في البحر . وبين مدينة قابس وبين البحر نحو ثلاثة أميال . وأكثر جناتها فيما بينها وبين البحر . وهي كثيرة الثمار والتمر . والموز بها كثير ، وليس بإفريقيا موز إلاّ فيها . وفيها شجر التوت كثير . ويربى بها الحرير ، وحريرها أطيب الحرير وأرقه ، وليس يعمل بإفريقيا حرير إلا بها .وهي مدينة بحرية صحراوية، لأن الصحراء منها قريبة . فيقال إنه ما اجتمع في مائدة ملك ثلاثة أشياء متضادة المواضع إلاّ في قابس ، ومن يسكن قابس يجتمع له فيها الحوت الطري ولحم الغزال العربي والرطب الجني . فهي حاضرة ذلك الإقليم وقطبه . ومن كلام الناس : قابس دمشق المغرب. وماء قابس شروب يستسقيه أهلها. وبغابتها أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير. ويتجر بزيته إلى النواحي. وبها نخل ملتف ورطب لا يعدله شيء في طيبه . وأهلها يجنونه طريا ، ثم يودعونه دنانات فيخرج بعد مدة له عسيلة لا يقدر على تناوله إلا بعد زوال تلك العسيلة . ثم لا يحاكيه شيء من التمر في طيب مذاقه وتعلكه . ومرساها لا يستتر من ريح ، وإنما ترسي القوارب بواديها . وهو نهر صغير يدخله المد والجزر . قالوا وفي أهلها قلة دماثة ولهم زي ونظافة . وفي باديتها عتو وفساد وقطع سبل. وبقابس قصر العروسيين وهو من البناءات المشهورة ؛ وكان بناه رشيد بن مدافع ابن جامع . فلما طلعَ عبدُ المؤمن ابنُ عليٍّ إلى إفريقيةَ وحاصرَ المهديةَ تأخَّروا عنْ قتاله ، فرفق بهم واستدعاهم بأشعار خاطبهم بها وتلوم عليهم ، فلم يصل منهم جواب. فبعث إليهم بعسكر عليهم ابنه عبد الله. فلما انتهى إلى قابس

جمعَ مدافعُ أهلَه وعَشيرتَه ومَن انحاشَ إليْه وفَر ، فَتبعَتْهُ شرذمةٌ من العسكر فقابلَهم ساعة ثم انهزم ، وقتل جماعة من أهله وجماعته . ومَلك الموحدون قابسَ وحَكموا علَى أهْله وطائفَته . وهربَ مُدافعُ وتَوَغَّلَ في الصحراء ، وتبعته الخيل فاستولت على ما معه . ونجا هو بنفسه إلى أن استجار بعرب طرابلس فأقام عندهم نحو العامين وصار شاعرا أديبا حافظا للسير والأخبار . ثم رأى التوجه إلى المغرب فسار واجتمع بعبد المؤمن بمدينة فاس ، وأناب إليه فأسكنه فاس ، فأقام بها إلى أن توفي . وكان لبني رشيد ذكر مع صنهاجة ، ومنهم أبو ساكن عامر ابن محمد بن سكر بن جامع ، خرج يوم فرارهم من قابس وخلص إلى دمشق. وأنشد له صاحب **الخريدة**[1] يتذكر أيّامهم ببلدهم :

يا جار طرفي غير هاجع ... والدمع من عيني هامع
ولقد أرقت مسامرا ... نجما بدا في الشرق طالع
مُتَذكراً الصروف دَهْر ... أصبحت فينا قواطع
إني من الشم الألى ... شادوا العلا أبناء جامع
أهل المراتب والكتائب ... والمواهب والصنائع
يتنافسون المعالي ... كأنهم فيها مسارع
ولقد ملكنا قابسا ... بالمشرَفيّات القواطع
تسعون عاما لم يكن ... لنا فيها منازع
وجنابنا للمعتدي ... بزهره المعروف نافع
وإذا شاهدنا مجمعا ... يومى إلينا بالأصابع
عبثت بنا أيدي الزمان ... وأجدبت منا المرابع

---

1) خريدة القصر وجريدة أهل العصر،لعماد الدين محمد بن محمد الكاتب الأصبهاني المتوفى سنة 557/1179. ينظر عنه : كشف الظنون ، 1 : 702 .

وبين قابس ونفزاوة ثلاث مراحل ، وبينها وبين قفصة مرحلتان . وهي على مرحلتين من [1] . ومن كلام الكاتب أبي المطرف ابن عميرة[2] في وصف قابس - وكان ولي قضاءها في أوائل مدة الخليفة المستنصر رحمه الله -" ووجدته غوطي البساتين ، طوري الزيتون والتين، فأما النخل فجمع عظيم وطلع هضيم، وسكك مابورة ونواعم في الخدور مقصورة. وبالجملة فبقعته وارفة الظل آمنة الحرم والحل ، جنة لو نزع ما في صدور أهلها من الغل". ومن رسالة أخرى: وجدته بادي الحضارة رائق النضارة جوانبه قد ملئت جنانا ، وأدرامه تروق ورقا وأفنانا .جنة لو نزع ما في صدور أهلها لعادوا إخوانا . وهذا البلد رائق الموضوع مكدس بالأوطان والربوع ، بل يزيد عليها في أشياء. والنازل به يتناول فيه ما شاء" . ومنْ أخْرَى : "وهذا البلدُ رائقُ المنظر ، رافلُ في ورق الحسن الأخضر ، مدهام الغابة تام الغرابة ، مستأثر بسيد من سادة الصحابة . ولا عيب بتربته إلاّ وخامة هوائها ، وحميات قل من يعرى من حر دائها . وربما مطلت ما يقوت قواربها ودفنت في البيوت عقاربها، وباتت تسري بشر مرارا وتمنع النوم غرارا ، ويخشى المؤمن أن يلدغ في حجرها مرارا" . ومن أخرى : "وهذه البلدة حدائقها في ظلال من شرخ الشباب ، والأطلال من ثمرات النخيل والأعناب . فهي جبال تفوق بجمالها الأندلس ، وبحار بين خلالها الربس . ولبيوتها دواجن سيئة الجوار سريعة إلى القطان والزوار ، كراها تنفيه وسراها تخفيه وصلحها لا يطمع واحد فيه . فقبحت شائلة الأذناب شاملة العذاب تحرق في الأدية وتقسم شرها بين البر والفاجر بالسوية ." انتهى .

---

1) بياض في جميع النسخ بقدر كلمة واحدة.

2) أحمد بن عبد الله المخزومي أديب نشأ في بلنسية وانتقل إلى غرناطة وتوفي بتونس سنة 1258/656. ينظر عنه : محمد بن شريفة ، أبو المطرف ، حياته وآثاره.

وإلى هذه المدينة ينسب أبو الحسن علي بن محمود بن خلف المعافري المعروف بابن القابسي[1]. لكن قال القاضي عياض في رسمه من كتابه **المدارك** لم يكن قابسيا ، وإنما كان له عم يشد عمامته شد القابسيين فسمي بذلك . وهو قيرواني توفي بها سنة ثلاث وأربعمائة ، وسنه ثمانون سنة ، ودفن بباب تونس .

ثمَّ أرسَيْنا بجَزيرةِ جَربة ، وأقَمْنا بها يَوْمَيْن ، وهيَ مُنقطعةٌ في البحر دار بها كلها ، إلاّ أنه ضيق جدا في الجهة التي تلي البر جدا ، حتى تعمل قنطرة يعبرون عليها . وهي واسعة جدا ذات نخيل كثير وفواكه كثيرة على أنواعها . والزيتون وأنواع الحامض فيها كثيرة . وعمارتها كثيرة قوية ، هي أحسن بلاد إفريقيا كلها في هذا الزمان. الاّ أن الزرع فيها قليل وليس فيها ماء إلاّ الآبار . وإنما يسقون أرضهم بالسواني والنواعر ، وكذلك بلاد ساحل إفريقيا كلها .

أرسينا على رأي العين منها في البحر وما دخلناها لكون القصير دائر بها ، لا يصل أحد إليها إلا بالعوم أو من ركب في صندل. وعندهم صنادل يأتون عليها بالفواكه يبيعونها في السفن .

ثم سافرنا منها عشية يوم الخميس ، فأرسينا بميناء طرابلس ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من ذي القعدة[2] من العام المذكور . ووجدنا بذلك المرسى نحو ستين سفينة وردت من القسطنطينية وفيها قبطان العمارة بنفسه ؛ وهو الباشا المتولي أمر البحر والسفن كلها . وأمر إفريقيا كلها بيده ، يولي فيها ما شاء، بمشورة الوزير الأعْظم والوزيرُ يُشاورُ السلطان . وَرَدَ هذا الباشا بما مَعَهُ من

---

1) المتوفى سنة 1012/403. ينظر عنه : الزركلي ، أعلام ، 4 : 326.

2) يوافق 26 ذي القعدة 997 يوم جمعة (6 أكتوبر 1589)

الجند بسبب قائم[1] قام في بلاد طرابلس وعاث فيها وأفسد أوطانها وأضرم فيها نار الحرب ، واجتمعت عليه العرب وحشدها ، واستولى على ما سوى المدينة من القرى والبادية والأوطان كلها ، وجبى خراجها وجمع أموالها وزحف إلى المدينة وحاصرها وقاتلهم فقتل كل من خرج إليه من الجند وأهل البلد وأفناهم . قتل منهم يوما واحدا ثمانية عشر مائة نفس . حتى قتل اليهود الذين يجرون الأنفاض، سوى ما قتله في غير ذلك اليوم في وقائعه منهم وغاراته.وصار له صيت عظيم ومهابة في قلوب أهل تلك البلاد ودانوا له ونكح المنعمات منهم وبنات أشرافهم وأقام له ملكا في ديارهم . وهو فظ غليظ متهاون بالشرع وبحدود الله سفاك للدماء . فأوجب ذلك نفور عقول الناس عنه لما ناقض فعله قوله ؛ إذ كان أولا زعم أنه يقوم بتغيير مناكر الترك وقمعهم، وبسط العدل بدل جورهم ، وغير ذلك من أكاذيبه التي حاول التوصل بها إلى غرضه من الرياسة والجاه . والترك جاروا على أهل تلك البلاد كثيرا وأفسدُوها وضيقوا على أهلها في أرضهم وديارهم وأمْوالهم حَتَّى اسْتباحُوا حريمَ المسلمين . وحَتَّى أنَّ بنْتَ الإنْسان من الأعيان والأكابر إذا كان لهم فيها غرض لا يقدر أحد أن يمنعها منهم ، أعني بالنكاح ، ولا أن ينكحها لغيرهم . إلى غير ذلك من الذل والإهانة التي هم فيها معهم . هكذا أهل إفريقيا كلهم معهم . فأوجب ذلك استماعهم لكل ناعق واتباعهم لكل قائم رجاء أن يجدوا الفرج معه. وقد رأينا منهم العجب العجاب في كثرة اشتياقهم وحنينهم إلى حكم موالينا الشرفاء ، وما كان فيه أهل المغرب معهم من الراحة

---

1) قام على العثمانيين في ليبيا ثائر يدعى يحيى بن يحيى السويدي سنة 1585، وقتل غدرا سنة 1588 فقام بأمر الثورة بعده صالح يدعى نيال ، وهو الذي جاءت الحملة التركية التي يشير إليها الدرعي هنا لقتاله .

والعدل والرفق والنعمة . تالله لقد كان من تحدثنا معه من خيار أهل تونس وأعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية يبكون على ذلك بالدموع وينتحبون ، ويودون لو وجدوا سبيلا إلى الانتقال إلى المغرب والتخلص إليه لاشتروه بالدنيا وما فيها ، فرج الله عليهم وأدام علينا أهل المغرب ما خصنا به ، وخلد ملك موالينا ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يصلي سيدنا عيسى عليه السلام وراءهم وحتى تقوم الساعة ، آمين .

ثم إن هذا القبطان خرج بما معه من جيش اصطنبول وما اجتمع عَلَيْه من جُنْد الجزائر، كانَ جاءَ مَعَنا في عدَّة سُفُن وجُنْد تونُس جاء في البر فتبعوا القائم في الصحراء أياما ، فوافقهم يوما وقاتلهم ساعة . ثم انهزم وفر وتوغل في الصحراء مع العرب . ورجع القبطان بالجيش إلى المدينة وقد زاحمهم الشتاء على ركوب البحر، وضاق الوقت بعد أن قتل من ظفر به من اتباعه ، وقتل من أهل تاجورا نحو مائتين . ثم إن العرب اختلفوا على القائم بعد ذلك اختلافا كان سبب قتله وسلخ جلده وحشوه بالتبن وبعثوه إلى اسطنبول مع قاتليه في فصل الربيع في سفينة كادت أن تغرق في البحر[1] . فوصلت ونحن هناك بعدما أيست من الوصول ، فنصب للناس في أسواق المدينة وكافأ السلطان قاتليه بمال جزيل وجائزة عظيمة وجراية وإقطاع في بلادهم .

وطرابلس مدينة مسورة حصينة وجدناها ضعيفة جدا بتوالي الفتن عليها . وهي في بسيط من أرض لينة مسترملة شبيهة بأرض الصحراء منشرحة الأوطان واسعة الأقطار . في قراها نخيل كثير وفواكه

---

1) تؤكد رواية أجنبية ، هي شهادة أسير ، ما أورده الدرعي من تفاصيل مقتل هذا القائم [هامش ك ، ص : 34]

كتاجورا وزنزور وغيرها . لقينا ممن ينتسب إلى العلم والدين والصلاح ، فقيهُها وخطيبُها السيدُ أبا عبد الله المكّنى اسْمُه كنيتُه . كانَ فقيها عالما متفننا مشاركا ذا سمت حسن وهدى ووقار وحسن معاشرة . كان أصله من صفاقس فنقل إلى طرابلس فاستوطنها وصار مفتيها لقيناه بمسجدها فتلقانا بالبشر والترحاب وسر بنا وحدثنا وأفادنا رضي الله عنه .

ومما سمعت عنه هذه القصيدة النونية ، في ذم الدنيا :

حديث الأماني في الحياة شجــون ... إن أرضاك شأن أخفضتك شؤون
يـميل إليهـا جاهـل بغرورهـــا ... فمنه اشتياق نـحوها وحنيـن
وذو الحزم ينبو عن حجاب محالها ... يقيه إذا شَـكٌّ عراه يقيـن
إليك ضريع الأمن منحــة ناصح ... على نصحه سيما الشفيق تبين
تَجَافَ عن الدنيا ودِنْ باطِّراحــها ... فمـركبها بالمتطين حـرون
وترفيعها خفض وتنعيمهـــا أذى ... ومنهـلها للوارديــن أجـون
إذا عاهدت خانت وإن هي أقسمت ... فلا تــرج برا واليمين يميـن
يروقك منها مطمـع من وفائـــها ... وسرعان ما بعـد الوفاء تخـون
وتمنحك الإقبال كبــلا لحائـــر ... ومن مكرها في طي ذاك كميـن
سفال لَعَـمْرُ الله إمْحاضُك الهَـوَى ... لِمَـن أنتَ بالبَـغْضاء فيه قَمين
ومَن تَصْطفيه وهو يُقطعك القِلــى ... وَتُهدي لــه الأعـذارَ وَهْوَ يُهين
ألا إنها الدنيا فلا تغتـــرر بهـا ... وَلُـود الدواهي بالخداع تديـن
يعم رداها الغير والحب ذا الدهاء ... ويلحق فيها بالكناس عريـن
ويشمل بلواها نـبيها وخـامـلا ... ويلقى مُذال غدرَهـا ومصـون
أبنْهَا، لحاها اللهُ ،كمْ نُكتة لهــا ... تُعَلِّـمُ صُـمَّ الصَّخْر كيْفَ يَلين
فلا ملك سام أقالت عـــثاره ... ولـو أنــه للفرقدين خديــن

ولا معهد إلا وقد نبّــهت بــه بُعَيْدَ الكرى للثاكلات جفــون
أنفت لنفســي أن يدنس فكرتــي سكون إليها موبق وركــون
فليس قرير العين فيهـا سوى امرء قلاه لها رأي يراه ، وديــن
أبت طلاق الحــرص والزهد دائما خليل له مستصحب وقريــن
إذا أقبلت لم يولها بشر شيــق ولاحق للإقبال منــه وزيــن
وإن أدبرت لم يلتفت نحــوها به فؤاد على ما لم تـؤاس حزيــن
خفيف المطا من حَمْل أثقال همِّها إذا ما شكت ثقل الهموم متون
علــى كتفه للفقــر أبهى ملاءة سنا حليها وسْطَ الندي يَزيــن
فــرحب مجال الخائفين منازل له ومكان حيث حــل مكيــن
منازل نجد عنده وتهامــــة سَوا واستَوى هنْدٌ لدَيْه وصيــن
يرود رياضا أيــن ســار وروده زلال متى اعتاض الورود معين
فهذا حقيق الملـك لا ملك ثائــر لأعدائه حَرْبٌ عَلَيْـه زَبــون
وهذا عريض العز لا عــز مترف له من مَشيدات القصور سجون
حوت شخصــه أو صافها فكأنّه وإن لم يمت فوق التراب دفيــن
فيا خابطا عشواء والصبح قد بـدا إلى كم تغطي ناظريك دجــون
أفق من كرا هذا التعامي ولاتضع بجهلك علق العز فهـو ثميــن
إذا كان عفو كل ذي جِدَّة إلــى بلى وقصارى ذي الحياة مَنُون
يهيج التناهي والتنافس ضلــه وفيه السماح والخصام يكــون
إلى الله أشكوها نفوسا عميــة عن الرُّشْد والحقُّ اليقيـنُ مُبيـن
ونسأله الرجعى إلى أمــره الذي بتوفيقه حبل الرجـاء متيــن
فلا خير إلا من لدنه وجــوده لتيسير أسباب النجاة ضميــن

قلت له يوما : القاضي عياض ضبط نسبتكم هذه في **مداركه** ، فإنه قال في رسم الفقيه ابراهيم بن يزيد المكَّني بتشديد الكاف وفتحها من مَكَّنة ، كان فقيها حافظا عابدا مجتهدا وكان يسكن المنستير . ثم

بلغه أن صديقا له توفي وترك بنتا بصفاقس فقال كفالة بنت صديقي أولى بي، فترك المنستير وكفلها ورباها ، فأعجبه ذلك . ثم قلت له : ولعلكم من نسل هذا الفقيه . فقال : ويقرب أن يكون ذلك والله أعلم . تُوُفي رحمَهُ اللهُ ونحنُ هناك فجأةً من غَيْر مرض بل خرجَ من منزله إلى الطريق يتكلم مع بعض الناس حتى سقط إلى الأرض وهو قائم، فحمل إلى بيته فتوفي في الحين .

الفصل الرابع :
من طرابلس إلى القسطنطينية

كانت إقامتنا في طرابلس شهرا واثني عشر يوما .وقد ضاق الوقت وحان دخول الشتاء وكبر علينا ركوب البحر في وقت منع الشرع من ركوبه فيه، وهو حلول الشمس ببرج العقرب إلى آخر الشتاء . وعظم علينا الخوف لارتجاجه وشدة هوله وموجه حتى كان يترجح عندي التخلف عن تلك العمارة ، والمقام بطرابلس مدة الشتاء حتى ينسلخ ، لولا ماكان من ملاطفة صاحبي السيد الكامل الكاتب سيدي محمد بن علي الفشتالي[1]، ورفيقي سيدي محمد بن علي بن أبي القاسم حفظهما الله وجزاهما عن الصحبة خيرا . فإنهما كانا يهوّنان عليَّ الأمر ويقولان : التخلف عن هذه العمارة وما فيها من الجند والقوة ليس برأى سديد ، لكنها مأمونة من أحد الخوفين وهو الأسر، والغرق نرجو من الله سُبْحانَه السلامةَ منه أيْضاً . وما زالا بي حَتَّى رَفَضْتُ ذلك الخوفَ والحذر وعزمتُ على السَّفَر . وقد كان البحرُ وموجُه تلك المدةَ التي أقمْنا بطرابلس يضطرب اضطرابا شديدا ويهول هولا عظيما حتى ربما يمنعنا النوم في الديار . وتفرقت المراكب في المراسي، وبعد بعضها من بعض خوفا من أن يضرب الموج بعضها ببعض فيتكسر . ومرسى طرابلس لا يمنعُ إلا من الريح الغربية ، تكسرُ فيه السفنُ وتفسدُ كثيراً . وقدْ كنا نشرف على البحر في تلك الأيام فنشاهد فيه من قدرة الله آيات عظيمة باهرة: أمواج كأنها جبال من زمرد سائرة تعطف عطفا وتنقصف قصفا وتأتي خاضعة إلى البر كأنها تقبل منه كفا وتأتيه أحيانا فتعطف عطفا وتنثني على الإلمام به عطفا فهي كما قيل :

---

1) الاديب الكاتب ، من خواص مساعدي السلطان أحمد المنصور السعدي ، توفي 1612/1021. ينظر عنه : محمد حجي، الحركة الفكرية ، 2 : 399.



السلطان العثماني مراد الثالث

(عن كتاب "Osmanli Padisahlari" KOÇU, Regad Ekrem)



منظر عام لمدينة اصطنبول سنة 1670

(عن كتاب Enfants de la Langue et drogmans p. 22)

تتكسر الأمواج فيه فتنثني   بيد الصبا مبيضة أعطافها
فكأن شهب الخيل قد غرقت به   فطفت على أمواجه أعرافها

فلما رأينا ذلك عظم علينا خوف البحر وهان علينا التخلف عن السفر فيه حتى يسكن عند انسلاخ الشتاء والربيع ، ولو طالت مدة الغربة عن الأوطان . ونسيت ما في ذلك وما أنسانيه إلا الشيطان . ثم أنفت من الغربة واغتنمت العمارة والصحبة ورمقت الدنيا بالعين الزاهدة وآثرتُ القُفولَ إن سَلَّمَنا اللهُ إلى الخليفة والوالدة ، وسَئِمْتُ من النوى والشتات ، وأزعجني "الجنة تحت أقدام الأمهات" فردّدت الاستخارة ، وجددت الاستشارة. فرأيت العزم على مكابدة هَمّ البحر مع العمارة أولى من التأخير وخير ، فأجمعت لذلك الصبر ، واقتحمت ركوب البحر الأخضر، واستسهلت صعب المخاطرة للأمر الأخطر . ولما انقضى من أيام إقامتنا هناك صباحها ومساؤها ، قربت إلينا الفلك ، فركبنا قائلين : بسم الله مجراها ومُرساها ، بعد صلاة ظهر يوم السبت أول وقت الزوال تاسع محرم عام ثمانية وتسعين وتسعمائة ، وهو ثامن شهر نونبر[1]. لم يبق للشتاء إلا سبعة أيام ، مع العمارة كلها ونحن من الحياة والسلامة آيسون ، في الحالة التي قال الله تعالى فيها : ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾[2] ونحن لبلاد الترك عامدون، ولعرض البحر قاطعون . فأخذنا نسير في تلك المواسط ونمور، وننجد بين الأمواج ونغور، ونصبح ونمسي لا نرى الاّ السحاب والبحور ، أزرق على أزرق . نحن دود على عود، في خطر الأسر والغرق . فرحمنا الله تعالى برحمته الواسعة ، فسكن من البحر هائجه ، وركد مائجه . وتلك السُّفُنْ تَخالُها جمالا تمدُّ أعناقَها وتحدقُ أحْداقها ، وتُغَيِّرُ منْ فيافي المياه

1) يوافق يوم السبت 9 محرم 998 يوم 18 نونبر 1589.

2) قرءان كريم ، الأنفال ، 6.

أزرارها وأطواقها ، وتشكو إليها أوزارها وأشواقها ، على الحالة التي وَصَفَها بها ذُو الجلال والإكرام : "ولهُ الجواري المنشآتُ في البحر كالأعلام"(1). لا يقال لها منشآت إلا إذا رفعت قلاعها . وسفينتنا بينها تسرع في اندفاعها، وقد استدرنا تحت ظل شراعها . فحسبتها خوف العواصف طائراً مدّ جناحيه على بنيه . وقد خصني الله سبحانه بالخوف الكثير بالبحر دون أصحابي ، حتى كاد الخوف أن يمنعني النوم. ينام الناس وأسهر أنا أرعى السفينة لا أقدر على ميلها ، وإذا بدا الريح وتحرك البحر وأزبد وصار كما قيل :

كأنما البحر إذ مر النسيم به	والموج يصعد فيه وهو منحدر
بيضاء أروقة تمشي على عجل	وطي أعكانها تبدو وتستتر

فإذا رأيت ذلك طار عقلي فرقا ، وخفت أن أموت غرقا ، ولا أقدر على الأكل ولا على الكلام مع أني قوي القلب سليم من الميد والقيء ، ما مدت قط ولا تحرك فؤادي ولا شممت من البحر رائحة كريهة دون أصحابي كلهم والحمد لله . إلا أني أخاف من البحر وأشتاق إلى وَطني وَأهْلي، وأطلبُ السلامةَ والعافية ، ومما أنشدَ في بَعْض الأزمنة :

بليت وأبلاني اغترابي ونابه	وطول مقامي بالبحار أجوبُ
فيا جسدا أضناه شوق كأنّه	إذا انتضيت عنه الثياب قضيب
ويا كبدا عادت رفاةً كأنها	ينازعها بالكاويات طبيب
وأهلي بأقصى مغرب الشمس دارهم	ومن دونهم بحر أجش مهيب
مهول كدير ليله كنهاره	فظيع بمرآه فؤادي يذوب
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة	وراء جبال الثلج حيث يصوب
ووالدي حولي وأمي وبنتها	ومعشر أهلي والرؤوف مجيب

---

1) قرءان كريم ، الرحمن ، 24 .

وربما أتبع الزفرة وأصل العبرة بالعبرة وأنشد من الاشتياق وتزاحم الأشواق :

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسى   وأسهدت ناظري فما يذوقُ كرى
أنَّى يكون اجتماع بين مفترق   جسم ببحر وروح حل وادي درا

ودرا اسم لواد درعة . وأنشد أحيانا من وحشة الفراق وضيق الأخلاق :

أنا في الغربة أبكي   مابكت عين حبيب
لم أكن يوم خروجي   من بلادي بمُصيب
عجبا لي ولتَركي   وطنا فيه حبيب

وكانَ صاحبُنا الفقيهُ الأديبُ الكاتبُ في ذلك كلِّه يُؤنسُني ويلاطفني ويرفق بي حفظه الله . ومن مخاطباته في مثل ذلك ما نصه ، ومما حضرني بديها على ظهر البحر في مخاطبة السيد الخير أبي الحسن حفظه الله ورعاه :

قد أرى منك حالتين على البحر   تخالفنا وشبرك باع
إن تيقظت قلت هذا مروع   أو تناعست قلت هذا شجاع
نحن يا ابن الكرام في مركب الأمن   ومن فضل الله فيه اتساع
ثقت باللطف والسر من عهد   كرام الآباء فيك مداع

أوجب ذلك أنه رآني يوما نعست ومالت السفينة ولم انتبه فزعا خلاف العادة ، وقد كنت أقول له : أن هؤلاء الكفار النصارى القذافة لا تجتمع راحتنا وراحتهم . إن كانت ريح ورفع القلاع وسارت سفينة به نخاف نحن من ميلها ومن قوة الريح فلا يتهيأ لنا رقاد ولا نوم ، ويستريحون من القذف ويأكلون وينامون ويتفرغون لأنفسهم . وإن كان هدوء وسكون في البحر تعبوا هم في القذف واسترحنا نحن ورقدنا .

وركوب البحر في هدوئه وسكونه نعمة عظيمة وغنيمة ؛ يطير الإنسان وهوَ جالسٌ مُسْتريحٌ آكلٌ شاربٌ راقدٌ يقطعُ المسافات البعيدةَ ويصل إلى البلاد النازحة ، وهو متنزه رضي البال من غير تعب ولا مشقة . صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال في راكبيه : ملوك على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة ، وإنه لكذلك .

ثم إن الله سبحانه سخر لنا البحر ووهب لنا ريحا طيّبة وأرسلها علينا من خزائن رحمته على قدر الحاجة ، حملتنا وسارت بنا سيرا معتدلا ، وشاهدنا في ذلك من لطف الله سبحانه ما لم يخطر ببالنا حتى تعجب البحريون وقالوا : قط ما رأينا هذا التيسير والسهولة في هذه المواسط فيسر الله علينا بفضله ، فقطعنا عرض البحر - وفيه سبع مائة ميل مسيرة ثمانية وعشرين يوما في البر - قطعناها في المدة التي بين وقت ركوبنا من طرابلس وهو زوال يوم السبت وبين الثلث الأول من ليلة الخميس الذي يليه . فكشفنا برّ الترك قبل الزوال من يوم الأربعاء. وقد كان الرايس طمع أن يكشف البر في أول النهار فلما لم يره قنط وقلق وخاف وقام وقعد وخشي أن يكون أخطأ الصواب في مسيرهم أو تَهُبُّ ريحٌ شرقيةٌ منْ جهَة البَرِّ تَرُدُّهُم على أعْقابهم ، وذلك هُوَ الهلاك ، أوْ تَرمي بهمْ في بلاد العدُوِّ. وأوتيَ بالغَذاء فَلَمْ يَقْدرْ على أكله وجعل يطلع من يعرف منه حدة البصر من خدّامه ونصاراه على الصاري ينظرون إلى البر حتى رآه رومي ، هو أول من كشف له على رأس الصاري. فضج أهل السفينة ضجة واحدة بالفرح والاستبشار بالبر وأعطوا البشائر للذي رآه أولا. وقال الرايس إيتوني بغَدائي الآن فأكله. وعند انقضاء ثلث الليل تعلقنا بالبر فأرسينا بمرسى أمدر[1].

---

1) هي مودون Modon الواقعة جنوب غرب البيلوبونيز على البحر الايوني [هامش ك ، ص : 42].

فسلمنا الله سبحانه بفضله ولطفه، لله الحمد وله الشكر . ثم خرجنا منه إلى قُـرُن[1] تلك الليْلة ، ثمّ منْهُ إلى منكشـه[2] ، ثم منه إلى نزل حصار[3]. ومعنى نزل في لسان الترك أحمر أي حصار أحمر بتقديم النعت على المنعـوت لكوْن تُرابه أحْـمَر . وهوَ في جَـزيرة يُقـالُ لهـا الگربز[4] . وهذه كلها حصون منيعة جدا بالأنفاض والأسوار والأبراج والرجال والعدد والعسس ، لا يغفلون ساعة ليلا ولا نهارا حذرا من النصارى . ثم منه إلى مرسى سقس[5] وهو اسم للمصطكى في لسانهم سميت به الجزيرة التي كانَ فيها ، وهيَ مُخْتصَّةٌ به لم يكنْ في شيء من الدنيا إلاّ في هذه الجزيرة، منها تجلب إلى الآفاق . وعلى المرسى حصن منيع واسع جيد البناء كله بالحجر المنحوت ، ثم منه إلى جزيرة على فم البغاز[6] الذي يدخل منه إلى القسطنطينية . ومعنى بغاز عندهم الحلق الضيق في البحر . وبداخل البغاز حصار ، وهو حصنان[7] متقابلان على حافتي البغاز مشبكة كلها بالأنفاض وهي المدافع الكبار على وجه الأرض . تضرب مدافع هذا بكورها تجوز على وجه الماء حتى تقع في أساس هذا الآخـر ، وكذلك هذا الآخر. بحيث لو كان على ظهر الماء عود أو طائر لأصابته . وهو باب القسطنطينية لا تجوز عليهما سفينة داخلة وخارجة إلاّ بإذن من أهلها ، وهم أناس أقامهم السلطان هناك

---

1) كُتبت أقدر في جميع النسخ ، وهي Qoron أو Koroni الواقعة على الخليج الذي يحمل نفس الإسم [هامش ك ، ص: 42].

2) هي Menemvasia [هامش ك ، ص:42].

3) هي Qizil Hisar [هامش ك ، ص:42].

4) جزيرة Egripos.

5) جزيرة Saqiz Adasi .

6) بوغاز الدردنيل ، والجزيرة المشار إليها هي جزيرة Tenedos [هامش ك ، ص:43].

7) بناهما السلطان محمد الثاني سنة 1462/865. يسمى الواقع منهما على الساحل الأوربي Kelid el bahr والواقع على الساحل الأسيوي Boughaz Hisar [هامش ك ، ص:43].

لرعاية البحر من العدو . ولا يفترقون ليلا ولا نهارا . إذا جاءت سفينة عدو أو كفار يرصدون غفلة خوفوهم بالمدافع وأغرقوهم ، وإلا عوقبوا عقوبة شديدة . ورأيت في بعض التواريخ[1] أن ذلك الحصار ورعاية البحر فيه أول ما كان في خلافة معاوية بالشام رضي الله عنه بسبب بطريق من بطارقة القسطنطينية لطم أسيرا مسلما وأهانه ، فاستغاث بمعاوية. فلما بلغه الخبر تحيَّلَ عَلَى ذلك البطريق حتَّى أوتيَ به إلى بينَ يَدَيْه عَلَى يد تاجر كان يدخل بالتجارة إلى تلك البلاد . فأعطاه كثرة الأموال وأنواع التحف وأمره أن يهادي بها ذلك البطريق ويستميله ويتحبب إليه . فما زالَ به كذلك حتَّى تواعدَ مَعَهُ مرة أنْ يأتيَه بأنواع من السِّلع والكسا والطرف عينها له إلى رياض له خارج المدينة . ثم جاء التاجر بذلك كله من عند معاوية. فلما خرج من رياضه يتلقاه ، رفعه وفرّ به في سفينة منيعة حتى طرحه بين يدي معاوية ، فأمر بذلك المسلم الذي لطمه النصراني، وقد كان خرج من الأسر قبل ذلك، فأتي به. فأمره أن يلطم النصراني ويقتص منه ولايزيد على ما فعل به. ثم رد ذلك البطريق إلى بلاده مكرما. فتعجب النصراني من ذلك . فمن حينئذ أعزوا الأسارى ولا يهينوهم، وبنوا هذا الحصار . هكذا نقل في حكاية طويلة الله أعلم. الحمد لله الذي صيره مانعا من دخول النصارى إلى ديار المسلمين ، بعد أن كان بالعكس ، أدام الله ذلك إلى يوم القيامة ، آمين .

وبشرق مدينة قسطنطينية بغاز آخر أضيق من هذا البغاز المذكور ينفذ إلى بحر واسع يسمونه بلسانهم قر دنكز[2] ، معناه بحر أسود؛ دنكر هوَ البَحْر وقَرَ أسْود ، بتقديم النعت . منْهُ يَجلبُونَ الخشبَ

---

1) أورد هذه الحكاية المسعودي في مروج الذهب ، 8 : 77 . [هامش ك ، ص : 44]

2) Qara Dengiz

والحطب للمدينة . يذكرون أن الدخول في ذلك البحر صعب شديد على السفن .

ثمَّ من الجزيرة[1] إلَى حصْن گلبُل[2] التي قالَ فيها أخُونا سَيِّدي محمد رحمه الله ، وقد كان توجه رسولا إلى تلك البلاد قبلنا : لا يصله إلا من بُلي. وصدق رحمه الله . وهو مدينة حصينة كثيرة العمارة. ثم منْه إلى جَزيرة مَرْمَرَة ، ثمَّ منْها إلى جزيرة قوقنَة[3] . وأخذتنا فيما بينَها فرتونةٌ عَظيمةٌ هاجَ علينْا البحرُ وتراكمَتْ أمْوَاجُه وصارتْ كالجبال، وأزبد البحر واشتدت الريح ، حتى صارت تقيم الماء من البحر وتدور به كما تدور الأغصان في البر، وهي الزوبعة . وتكسرت المقاذيف بالموج وتميل السفينة حتى تكاد أن تنقلب بما فيها . وصار البحر يضرب بها كأنها تبنة ملقاة على ظهره. وأطلق الرايس النصارى من القطاين[4] وأدخلهم في جوف المركب مع من لا مصلحة فيه من المسلمين لخدمة السفينة، وربط عليهم باب الجوف بالقار لتخف السفينة ولئلا يدخل عليهم الماء للجوف فيغرقها ، وصارت السفينة تسبح في البحر كالسَّمكة؛ يَعلوها الموْجُ ويعمُّها وعَظمَ الخطبُ وتحقَّق الهلاك ، وأيس من الحياة وتشتَّتتْ العمارة ، وذهب كل مركب إلى حيث رمى به، وصار الحال كما قيل :

إذا ترامت جبال الموج والتطمت ... في البحر لا حيلة لراكبيه ترى
إذ يحسد الكلب فوق البر راكبه ... والكلب من جوعه يستحسن القذرا
في البر سافر مع الجم الغفير وقل ... لا قدر الله في بحر لكم سفرا

---

1) هي جزيرة Tenedos [هامش ك ، ص : 45].

2) Gallipoli

3) Qoqina

4) جمع مفرده قطينة ، وهي كلمة مغربية عامية تعني آلة حديدية تجمع بها ألواح الخشب . وتعني أيضا الكبل يكبَّل به الأسير. أنظر عنها : الوثائق ، 2 : 416.

فَفَتَحَ اللهُ منْ فَضْله جَزيرة قوقنة رفعَتْ لنا نَحْنُ أهلَ سَفينتنا خاصَّةً رأيناها أقربَ إليْنا منْ غَيْرها . فَجَعَلَ الرايسُ يُحاولُ ويُعالجُ السفينة مع تلك الأمواج حتى دخل مرساها واستكن بها بقية ذلك اليوم وتلك الليلة المقبلة وغدها. وسكن البحر وطاب ، فسافرنا في الليل وأصبحنا على مدينة القسطنطينية العظمى سالمين ، والحمد لله تعالى. فدخلنا مرساها ضحوة يوم الثلاثاء سادس عشر من المحرم المذكور وهو الخامس والعشرون من نونبر[1] وهو اليوم العاشر من الشتاء وبتنا تلك الليلة في السفينة . ومن الغد نزلنا ودخلنا المدينة وسلمنا على الوزير، ثم رجعنا إلى السفينة إلى أن هيؤوا لنا منزلا بقرب قصر السلطان ، فَنزَلْنا ونَقَلْنا حوائجَنا إليْه .

وقسطنطينية مدينة عظيمة قاهرة من أعظم مدن الدنيا وأشهرها . وكفى في شهرتها إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بها في عدة أحاديث ، منها قوله صلى الله عليه وسلم :"أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم" . وهي المراد بمدينة قيصر، غزاها يزيد بن معاوية في خلافة أبيه . وفي تلك الغزوة توفي أبو أيوب الأنصاري النجاري[2] رضي الله عنه ، ورحلوا عنها ولم يفتحوها ، وجعل أيضا صلى الله عليه وسلم فتحها من علامات قرب قيام الساعة وأخبر به. قال الشيخ الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي في **التذكرة**[3] : خرّج مسلم[4]

---

1) يوافق يوم 25 نونبر 1589 .

2) هو خالد بن زيد الصحاب الجليل المتوفى سنة 672/52.

3) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة لشمس الدين محمد بن أحمد القرطبي المتوفى سنة 1359/761. ينظر : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1 : 390.

4) الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى سنة 875/261.

عن أبي هريرة[1] رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تقوم الساعة حتى يفتتح المسلمون قسطنطينية ، يقاتلون الروم" . وخرّج ابن ماجة[2] عن عمر بن عوف قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يفتتح المسلمون قسطنطينية بالتسبيح والتكبير فيصيبون غنائم لم يصيبوا مثلها حتى يقتسموا بالأقرعة" . وخرّج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : "سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانبٌ منْها في البَحْر ؟ قالوا : نَعَمَ يا رَسولَ الله . قالَ : لا تَقومُ الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق ، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم . قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها" . قال الراوي : لا أعلمه إلا الذي في البحر. ثم يقولون الثانية : لا إله إلاّ الله والله أكبر ، فيفرج لهم فيدخلونها ، فيغنمون . فبينما هم يقتسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إنّ الدجال قد خرج . وخرّج الترمذي[3] عن أنس[4] رضي الله عنه قال : فتح القسطنطينية مع قيام الساعة . وقال بعض العلماء : إن حديث أبي هريرة أولا يدل على أنها تفتح بالقتال ، وحديث ابن ماجة يدل على خلاف ذلك مع حديث أبي هريرة آخرا . قال القرطبي : ولعل فتحها يكون مرتين؛ مرة بالقتال ومرة بالتكبير . انتهى كلامه باختصار . وفي بعض الآثار : أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر ثلاثة من أصحابه أن أحدهم يموت محاصرا بمدينة قيصر ويدفن بها . وفي الثلاثة أبو أيوب

---

1) الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي المتوفى 679/59.

2) محمد بن يزيد الربعي القزويني ، صاحب "السنن" المتوفى سنة 887/273.

3) محمد بن عيسى الترمذي تلميذ الإمام البخاري ، توفي سنة 892/279 . له "الجامع الكبير" المعروف بصحيح الترمذي .

4) أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المتوفى سنة 712/93.

رضي الله عنهم . فلما حاصر المسلمون القسطنطينية وهو فيهم ، وقد مات صاحباه قبل ذلك ومرض ، أيقن أنه هو مراد النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه ، فأخبر بذلك المسلمين .

وهَذه المدينةُ واسعةٌ جداً مُسَوَّرَةٌ كثيرةُ الأبْواب والعمارة والمساجد والجوامع والأسواق والحمامات والفنادق . وهي قاعدة بلاد الروم وكرسي مملكتهم ومدينة قيصر . وما زال من بها من المسلمين اليوم ينتسبون إلى الروم ويحبون هذه النسبة ويوثرونها ، حتى الخط الجيد عندهم يقولون خط رومي . وعمارتها دائرة بمرساها ، ومرساها واسعٌ جداً داخلٌ في البر كثيرا . وقد أرسى فيه من أنواع السفن والمراكب من الأغربة والغلاين[1] والبطشات[2] والمعونات[3] والبراكش[4] والغلايط[5] والفراقط[6] والزوارق والصنادل في المرسى كالنمل . هي عندهم بمنزلة الحمير يتصرفون عليها في حاجتهم إلى الغلطة وإلى الرياضات وغيرها في كل شيء حتى في الحشيش والتبن والحطب . والمدينة العظمى على يمين المرسى يسمونها اسطنبول والأخرى على شمالها يسمونها الغلطة[7]. وهي أيضا مدينة صغيرة مسورة ، وبخارج سوريهما أرباض وديار وبناء متصل يبنون في وسط ماء البحر يردمونه بالحجارة ويبنون عليها أو يغرزون فيه خشبا ويرفعون البناء على رُءوسها ويَسْكنونَ فيه . والديارُ مُتَّصِلَةٌ كذلك طالعةٌ معَ سَفْح البر متراكبة بعضها فوق بعض .

Galions (1

Pataches (2

Mahonnes (3

Barcasses (4

Galiotes (5

Frégates (6

Galata (7

ومرساها قلّ ما يوجد مثله في الدنيا سعة واستكانا من الأرياح كلها . ولو اضطرب البحر وعظم موجه أكثر ما يكون قلما يتحرك فيه الماء . وأعظم مايكون من المراكب يرسي على طرف الديار مُحاذياً للبَرِّ بحَيْث يَرفَعُ الإنسانُ قَدَمَيْه من البَرِّ ويَضَعُها في المركب . ويقع منتهاه نهر عذب في البحر . وأسواق المدينة لا تحصى ولا تعد ، فيها من كل شيء مما يذكر من متاع الدنيا ما يقول الإنسان ، لو اجتمع أهل الأرض على أخذه لوسعهم وفضل عنهم . وفيها مساجد وجوامع عامرة بذكر الله ، من أعظمها المسجد الجامع الذي على باب قصر الملك يقولون له آية صوفية . هي من البنيان القديم الذي هو من أعجب أبنية الدنيا وأعظمها . لا يحيط به الواصف ولا يدرك إلا بالمشاهدة ، ولا يدرك عقل السامع ما هو عليه بالوصف ؛ ليس الخبر كالمعاينة . كان قبل الإسلام كنيسة عظيمة ، الله أعلم بنيت على الضخامة التي بالقدس ، التي يذكر في بعض التواريخ أنها بناها ملك يقال له قسطنطين[1] دخل مع رعيته في دين النصرانية ، وانتقل إلى قسطنطينية ، أو هو بناها وبنى فيها الكنائس والبيع ، منْها هَذه . وقدْ صُورَتْ صُورَتُه فيها جالساً علَى سَريره . وقيلَ إنه بناها أصف ابن برخيا ولد خالة سليمان النبي عليه السلام . قاله ابن بطوطة ، الله أعلم أنه أقرب إلى الصحة ، لكون بنائها أشبه ببناء الجن، والبشر يعجز في الغالب عن مثله . وفي وسط المسجد قبة عظيمة واسعة جدا عالية مفرطة العلو في الهواء بحيث يطير الحمام في رأسها من داخل تحت القبو ويظنه الجالس فيها عصفورا ، هي أول ما ظهر لنا في البر ، عالية مذهبة . ودور القبة وسَمْتُها أكثر من مائة خطوة ، مرفوعة على قواعد مبنية ببناء ضخم بقطع الصخر العظام الهائلة المنحوتة

---

1) باني الكنيسة ليس الإمبراطور قسطنطين بل إبنه كونسطنس Constance .

الضخام ، كأنها أجراف شواهق الجبال . وأساطين من رخام مجزع ملون عالية في الهواء ضخمة غليظة لا يحيط بإحداها أيدي رَجُلَين . ويحيط أيضا بتلك القبة العظيمة الوسطى قباب أخرى دائرة بها من وراء تلك القواعد والأساطين ، هي أخفض سقفا من الوسطى لكون سطحها طبقة أخرى يصلي الناس فيها ، ويشرف منها على القبة الوسطى في دربوز[1] دائر بها ، خارج في هوائها مرفوع على أعْمِدَة حَديد خارجَة من الحائط أشْرَفْتُ أنا منْهُ يَوْماً فرأيْتُ الرجالَ في أرض القبة كأنهم صبيان من العلو . وفوق هذا الدربوز دربوزان آخران دائران بالقبة هما طريقان ضيقان يرقد خدام المسجد فيهما . وفي السفلي قناديل زجاج توقد في ليالي رمضان دائرة بالقبة ثلاثة مساطر[2] من داخل . وأرض هذا المسجد مفروش كله بألواح الرخام وحائطه كله من داخل مبطن بالرخام . وداخل المسجد كله منقوش بأنواع النقوش والتخاريم المختلفة الصنعة والألوان التي لا يشبه بعضها بعضا فائقة الحسن غريبة الترصيع ، قد أفرغ على ذلك كله الذهب الذائب المضروب إفراغا بالتثمين والتسديس والتربيع ، بتذهيب مشجر مورق ومصفف لحكم قد رونق الحسن استتمامها ، واستوفت من حظوظ البراعة اختتامها . منظر رائع ورواء لامع، لولا ما غير الزمان من حُسْنها. وفي المسْجد من القناديل المعلَّقَة من الذهَب والزُّجاج ما لا يحصى ولا يحاط بعدّه. ومنبره عال مرتفع في الهواء منحوت كله من حجر واحد من رخام أبيض صاف، في أعلاه قبة مذهبة . ومحرابه أيضا منحوت من رخام دائر به مصاحف القرآن على مرافع . وعلى يمينه

1) كلمة مغربية عامية تقابل كلمة الدرابزين اليونانية الأصل.

2) المسطرة كلمة مغربية عامية ، عبارة عن خشبة تختلف نقشا وتلوينا ، تثبت على الجدار وتوضع فوقها أواني أو أشياء أخرى ، وتدعى كذلك "مَرْفَع".

وشماله شمعات مرفوعةٌ على حَسكات مذهبة ومَبْخَرات . وفُرِشَ ما يلي المحراب إلى نحو نصف القبة بزرابي وطنافس رفيعة . وفيه كراسي للتدريس والمؤذنين والحزابين[1] ، مرفوعة على أعمدة من رخام أبيض أفرغ الذهب على رؤوسها . وبخارج المسجد مآذن عدة دائر بها قناديل خارجها توقد في رمضان كما في داخل المسجد . وكذلك يفعل بمآذن البلد كلها ، بل في بلاد المشرق كلها. وبداخل المسجد أنواع الصور والصليب وصور الملائكة جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل وغيرهم، وصور الأنبياء في الطبقة العليا يحيى وزكرياء ومريم بولدها عيسى على عضدها، ومهد عيسى ، وغير ذلك من تلاعب الكفرة. وقد قلع المسلمون لما دخلوها صور الصليب كلها وبعض الصور غيرها ، وتركوا بعضها . وبهذا البلد مساجد حاولوا فيها شبه هذا المسجد الأعظم ، لكن عجزوا عن ذلك ، وأين الثريا من الثرى ، لقد حكيت ولكن فاتك الشنب . وأقربها به السليمانية المسجد الذي بناه السلطان سليمان[2] ، ودفن فيه . شبهوه بآية صوفية في بنائها ووضعها . وأتِيَ بأربع أساطين من رخام من الإسكندرية على سفينتين ، فغرقت واحدة باثنَتَين وسلمَت الأخْرَى باثنتَين ، فَجَعَلَهُما فيه . لقيتُ أنا رجلا منستريا حدثني أنه حضر بالإسكندرية حين اقتلعوا هذه الأساطين، فأخرجوها من ثلمة هدوها من السور ما قدروا أن يخرجوها من الأبواب. لكن بناء آية صوفية أقوى وأفخم وأغلظ ، والسليمانية أبهج وأشرح وأفسح ، والله أعلم أن بينهما ما بين بانيهما من الإسلام والكفر، فعلى كل منهما كسوة قلب بانيها .

---

1) الخزائن في كل النسخ ، والحزابون هم المعينون لقراءة أحزاب من القرءان .

2) السلطان سليمان المدعو القانوني (1520-1566) .

وبهذه المدينة ماء جار، وفي المساجد أكثر . وفي هذه المدينة من الخلائق والصناع والأموال والتجار والسلع والدكاكين والكتب ما يتعجب الإنسان من كثرته ولا يحصيه ولا يحيط به إلاّ الله سبحانه . تجد لأقل ما يكون من الأشياء وأحقرها أسواقا عديدة . وقد وجدنا حريقا فيها في الشتاء التي قبل دخولنا يوم السبت لتسع بقين من جمادى الأولى[1] أُحْصِيَ ما احترق بها فوُجد من المساجد والجوامع ثمانيةٌ وعشرون ، ومن الدور والخانات والقياسر اثنان وعشرون ألفاً ويقولون هم للقيسارية البدستان ، ومن الدكاكين خمسة عشر ألفا ، ومن الحمامات تسع ، مع أنه ما احترق منها إلا بقعة صغيرة بالنسبة إلى سَعَة المدينة وكثْرَتها. وأكثرُ ما احْتَرَقَ فيها اليهود، إذْ اليهود والنصارى فيها مختلطون بالمسلمين . وقد ذُكِرَ لنا أن عدة الشياه التي تذبح فيها كل يوم خمسة عشر ألف شاة . وأن حطب دار السلطان وحدها كل يوم يساوي سبعمائة مثقال في الشتاء. وهذه المدينة مثلثة الوضع ثلثاها دار بها البحر داخلة فيه ، وفي رأسها الداخل في البحر قصر السلطان يسمونه بلغتهم السراية ، قصر واسع جدا ، قصر فيه مساكنه ومساكن غلمانه ، وليس فيه غيرهم ، ورياضه ومنتزهاته وإيوانه . وفيه خوخات يخرج منها إلى البحر. وبُنِيَ له على بعضها مجالس وقباب مزوقة منمقة يجلس فيها أحيانا مع غلمانه خاصة ، يتنزه في البحر وفي السفن . ومن سافر منها يعرض عليه هناك مزينة وتسلم عليه بضرب مدافعها وتنصرف . وكذلك كل من ورد على ذلك المرسى من سُفن إذا حاذى قَصْرَ السلطان أخْرَجَ مدافعَه؛ فَذلك سلامُه عليه وإعلامه بوروده . وبخارج سور القصر إلى جهة البحر مدافع كبار مُصَفَّفَة ، عليْها غلمانُ يَحْرسُونَها ليْلا ونهاراً . وعَلَى تلك

---

1) يوافق يوم 21 جمادى الأولى سنة 998 يوم جمعة (7 أبريل 1589).

الخوخات سفن سوابق صغار مزينة محكمة الصنعة معدّة لركوب السلطان متى احتاج إليها مع غلمانه خاصة للتنزه وللزيارة . وأكثر ما يزور قبر أبي أيوب الأنصاري يركب إليه في البحر غالبا وفي البر أحيانا لا يَغبُّ عنه . وللسلطان سراية أخرى عند السليمانية يكون فيها ما يختارونه من بنات الكفار يجلبونهن من بلادهم وعليهن قيمات من نساء أمينات يؤدبنهن ويعلمنهن ما يصلحن به لخدمة السلطان . ثم يرفعون من تعلمتْ منهن وتأدبت لقصر السلطان . وعلى باب السراية بوابون وحراس لا يقربها رجل ذكر . والثلث الآخر من المدينة إلى جهة البر فيها قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي ، خارج البلد ، له مقام عظيم : جامع خطبة وأوقاف كثيرة . والقبر مكسو بالحرير دائر به عدة مصاحف على مرافعها يقرأ فيها الزوار ويوقد عليه عدة شمعات دائرة بالروضة مركوزة على حسكات مذهبة . وبالباب بوابون وحجاب ، يزدحم الناس على زيارته كل وقت . وأكابر الدولة يتنافسون في الدفن بجواره ويشترون مواضع قبورهم بأغلى ثمن . وكذلك من قدر على ذلك منْ أهْل الخيْر والعامَّة. زُرناه واغْتَنَمْنا بَرَكَته والدعاءَ عنْدَه، رَضيَ الله عنه . وقدر ما بين منزلنا الذي نزلنا فيه عند سراية السلطان في حد المدينة الداخل في البحر وبين مدفن الصحابي أبي أيوب في حدها ومنتهاها في البر خارج سورها ستة أميال تقديرا . قال الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله البر النمري الأندلسي الحافظ في كتاب **الاستيعاب**[1] في رسم أبي أيوب معرفا به خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة أبو أيوب الأنصاري النجاري من بني غانم بن مالك بن النجار غلبت عليه كنية أمه هند بنت سعيد بن عمرو بن امرئ القيس بن

---

1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب للحافظ أبي عمرو يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة 1070/463.

ملك بن ثعلبة بن كعب بن الحارثة بن الخزرج الأكبر ، شهد العقبة وبدرا وسائر المشاهد . وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجه من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجرا من مكة . فلم يزل عنده حتى بنى المسجد في تلك السنة وبنى مساكنه ، ثم انتقل صلى الله عليه وسلم إلى مسكنه وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير . قال رضي الله عنه : نزل رسول الله صلى الله عليه وسَلَّمَ في بَيْتنا الأسْفَل ، وكنتُ أنا في الغُرْفَة، فأهْرقوا ماءً في الغرفة ، فقمت أنا وأم أبي أيوب بقطيفة نتبع الماء، شفقة أن يخلص إلى رسول الله صلى عليه وسلم . ونزلت إلى رسول الله صلى عليه وسلم وأنا مشفق ، فقلت : يا رسول الله ، إنه ينبغي ليس أن نكون فوقك، انْتَقلْ إلى الغرفة . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتاعه أن ينقل ، ومتاعه قليل . وكان أبو أيوب الأنصاري مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حروبه كلها . ثم مات بالقسطنطينية من بلاد الروم في زمان معاوية . وكانت غزاوته تلك تحت راية يزيد ، كان أميرهم يومئذ. وذلك سنة خمسين أو واحد وخمسين وهو الأكثر ، في غزوة يزيد القسطنطينية . روي عنه أنه خرج غازيا في زمن معاوية فمرض، فلما أثقل قال لأصحابه : إذا أنا مت فاحملوني فإذا صادفتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ففعلوا . وقبر أبي أيوب قرب سورها معلوم إلى اليوم معظم يستسقون به فيسقون .

انتهى كلام ابن عبد البر رحمه الله.

فهنيئا لمن بهذه المدينة من المسلمين وبشراهم بما رواه البخاري[1] عَنْ مُحَمَّد بْن مُقاتل عَنْ مُعاذ بْن جَبَل عنْ خالد بْن عَبْد الله بْن

---

١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة المتوفى سنة 870/256. حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب "الجامع الصحيح" .

مسلم الأسلمي ، قال : سمعت عبد الله بن يزيد يقول أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : أيما رجل من أصحابي مات ببلدة فهو قائدهم ونورهم يوم القيامة . أخرج هذا الحديث ابن عبد البر في **الاستيعاب** في رسم بريدة .

وأزقة هذه المدينة كلها مفروشة بالحجر واسعة الطرق والدكاكين . وبناء ديارهم ضعيف أكثره بالعود لكثرته عندهم ، ولذلك تقع فيها النار سريعا . والحجر والآجر قليل لا يبني به إلى القليل من الأكابر والأغنياء . وبهذه المدينة ، في موضع يقال له أط ميدان وأط بلسانهم الخيل والميدان موضع إجراء الخيل بتقديم المضاف إليه ، وفي غيره ، سواري من حجر واقفة في الهواء طويلة بعضها على قواعد وبعضها راسخة في الأرض لا يُدْرى لماذا أقيمت ولا بماذا ولا لِمَ كان أصل وضعها . وفي بعضها صور بعض الحيوانات من الأفاعي وغيرها ، وغير الحيوانات . وبعضها تصدّع وتشقق فشدّ بعصائب من حديد ونحاس .

وهذه المدينة بل تلك البلاد كلها شديدة البرد غاية بحيث يلجئهم ذلك إلى إيقاد النّار في كلِّ بَيْت علَى الدوام ليْلا ونهاراً في فصل الشتاء كله ، لا يقدر أحد أن يفارق النار في منزله . يفرشون الفرش الرفيعة المثمنة من الحرير وغيره ، والنار توقد في طرف الفراش. وقد دخلنا منزل رجل من وزراء السلطان وبنت السلطان زوجه ، فأضافنا بأنواع الأطعمة وألوانها المختلفة وأشربة سكر وعسل مطيبة بأنواع الطيب ، ومجامير العود والعنبر على اليمين واليسار وماء الورد والزهر المُمَسَّك يُرَشُّ علينا ، وهو على فرش ، وصفف وسائد الحرير والديباج المذهب المرصع بأنواع الأحجار وغيره . والحيطان ملبسة بمثل ذلك الشيء لاقيمة له ولا ثمن . والنار توقد مع ذلك كله في البيت.

والغلمان والأعلاج من الحبش والروم وقوفا صفوفا أمامه ، كل واحد لايشبه الآخر في الحسن والجمال ، عليهم قفاطين وأقبياء مختلفة الألوان من الديباج والبركاض[1] ، لباس الواحد لا يشبه لباس الآخر، يدبرون أمره . وإن فارق أحد النار فلا يقدر أن يخرج شيئا من يده للهواء بل يزمل بدنه ويلف يديه وأصابعه ما قدر عليه . والثلج ينزل عليهم في ديارهم في غالب فَصْل الشتاء وَيَصْنَعُونَ ثياباً منْ جُلود حَيَوان يسمونها الكورك والسمور يلبسونها في الشتاء ، يساوي ثوب واحد من رفيعها ألف أوقية وأكثر . وهي رطبة الوبر يعرف الجيد منها بأن يفتح الإنسان عينه ويدخل وبرها فيها فلا يحس به في بصره . ومن خاصيته أنه لا يكون فيه قمل . ويجعلون للدخان منافذ تجمعه وينفذ منها إلى فوق يسمونه الأوجاق ، ومنها يسرع الحريق في ديارهم. ومع هذا كله لا تنقطع عنهم الفواكه عامة الشتاء ؛ العنب والتفاح والإجاص والبطيخ وغيرها .

وبقبلة هذه المدينة موضع آخر يقال له سكدار ، فيه ديار ومساكن ومساجد ورياض ومنتزهات للسلطان وغيره ، والبحر بينها وبين المدينة، ويقولون للروض بلسانهم بخشة. وفي هذه المدينة كهيئة المدارس والزوايا يقولون لها بلغتهم التكية للواحدة ، يبنون فيها بيوتا لطلبة العلم والغرباء ، يطعمون فيها الطعام على الدوام ليلا ونهارا . لكن الغريب الذي هو ابن السبيل ليس بطالب علم لا يبيتونه إلا ثلاث ليال وينصرف لسَبيله أوْ يَذْهَب لأخْرَى إنْ شاء وَيُطعَمُ فيها ثلاثاً أيْضاً .

ويُصْنَعُ بهذه المدينة السفن والمراكب على الدوام في بيوت كثيرة مصففة على طرف البحر من جهة الغلطة ، كل بيت يسع مركبا على قدره ، ووراءه بيت آخر يجمع فيه ما يحتاج إليه المركب من حبالة

---

1) Brocard

وقلاعه وآلاته كلها. فإذا تم المركب وكمل دُفِع في الماء وهنالك يجتمع الصناع كلهم والكتاب أعني كتاب البحر والرايس والبحرية والقبطان . يقولون لذلك الموضع بلغاتهم الطيحانة .

ثم في اليوم الثالث من إقامتنا في المنزل الذي أعد لنا أذن لنا في الدخول على السلطان وإدخال الهدية عليه . فدخلنا عليه في إيوانه، وهو واسع جدا كثير الأشجار وفيه أنواع من الوحش ، وفيه قباب وبلاطات،يجتمع فيه الوزراء والقضاة والكتاب والأمناء وأعيان الجنود ومن له به حاجة من العامة والأعيان ، يوم الديوان خاصة ، وهو السبت والإثنَين والأرْبعاء ، يَجْلسونَ هنالك على الوزير في قضاء مآربهم ، حتى الغداء فيتغدَّون ثم يؤذن للوزير الأعظم والوزير الثاني والثالث فَيَدْخُلونَ علَى السُّلطان بَعْدَ دُخول القاضيَيْن : قاضي الرميلي وهو اسم للعدوة التي فيها اصطنبول المتصلة ببر النصارى إلى الأندلس، وقاضي ناضولة وهو اسم للعدوة الشرقية المتصلة إلى الشام وهو بر العرب . وقاضي الرميلي أرفع وأثبت من قاضي ناضولي . أول من يدخل على السلطان هذان القاضيان ثم رئيس الكتاب ثم رئيس بيت المال . لا يدخل غير هؤلاء ولا يرى السلطان غيرهم . يدخل كل واحد منهم على قدره وزينته . يتقدم قاضي الرميلي ويتبعه قاضي ناضولي وراءه لا يساويه في المشي ، بل يتأخر وراءه لا يساويه ، وإن ساواه فقد أساء الأدب . وكذلك الوزير الأعظم ثم الثاني وراءه ثم الثالث وراءه لا يساوي كل واحد منهم من هو أعلى منه رتبة في المشي ولا في العمامة ولا في اللباس ولا في المجلس . ما رأيت من يراعي حرمة الأدب ويحافظ عليه مثلهم . ثم إذا دخلوا على السلطان لا يجلس أحد بين يديه ولا بمرأى منه بل يقف وقوف أدب ، قابضا يديه إحداهما على الأخرى كهيئتهم في الصلاة ، ولا يتكلم أحد . فيعرض قاضي الرميلي

ما يحتاج أن يعرضه من مسائل الشرع وأمر القضاة الذين تحت نظره من عَزْل وَتَوْلية على السلطان بكلام خَفيٍّ فيأخذُ منه جوابها ويرجعُ القهقرى. ثم قاضي ناضولي كذلك . ثم الوزير الأعظم كذلك في مسائل الجند، ثم الوزيران الآخران كذلك فيما إلى نظرهما . ثم رئيس الكتاب كذلك في كتب العلامة التي كتبها هو وسائر الكتاب الذين تحت نظره.فما قبله السلطان أمره أن يضع فيه علامة السلطان ، يقولون لها بلسانهم النشان . ويقولون للكتاب الذي يضعها النشانجي، الجيم عندهم بمنزلة ياء النسب عند العرب . والسلطان لا يضع العلامة بيده ولا يتعب فيها . ثم أمين بيت المال يعرض عليه مسائل المال ،واسمه دفتردار عندهم، ويأخذون أجوبتهم ويخرجون . ولا يبقى عند السلطان إلا الحاجب بقضيب ذهب في يده . ودخلنا عليه نحن بعد الوزراء ، فسلمنا عليه وناولناهم ما معنا من الكتب فأخذها الحاجب وخرجنا . والهدية أدخلوها قبل دخولنا ، ففرحوا بها كثيرا وعجبوا منها.

وسلطانهم في راحة عظيمة ودعة . متفرغ للهوه ولذاته وأموره في قصره هو وأهله وغلمانه وأناس صغار قصار القامة يضحكونه ويَلعَبُونَ بَين يَدَيْه ، يُؤتَى بهم إليْه أينَ وُجدوا في بلادهم وَلا يدخل عليه ولا يراه غيرهم وغير الوزراء المذكورين وقاضيين ورئيس الكتاب وأمين بيت المال والحاجب يوم الديوان ومعلمه ، ويقولون له بلسانهم خوجة ، يدخل عليه من غير حدّ متى دعاه . وسائر الأيّام غير الديوان يكون الجمع على الوزير الأعظم في منزله هو يفصل أمور المملكة ويمضيها وتصدر عنه. وأمورهم كلها وسياسة مملكتهم مقررة بعدة قوانين مضبوطة وضوابط مكتوبة عندهم مدونة ، يتبعها الوزير ويقتفيها ولا يحتاج أن يشاور السلطان ولا يطلعه إلا على أمر هَمٍّ . ولسلطانهم مع ذلك في قلوبهم وقلوب رعيتهم محبة عظيمة ، تجد أقل ما في الرعية من المساكين الذين لا يعرفون السلطان إذا أكلوا طعاما يدعون للسلطان

ويطلبون من الله صلاحه وبقاءه . وكذلك سائر أهل تلك البلاد في أسواقهم ومساجدهم . وخطباء هذه المدينة يخطبون بخطب فصيحة قصيرة بوعظ بليغ. ويعجبني منهم مبالغتهم في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . ويلتفت الخطيب عند الصلاة على النَّبيّ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم إلى يمينه يُواجه مَنْ على يمينه من الناس ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بليغة بصوت جهير حنين ، بخشوع وخضوع ، ثم يلتفت إلى اليسار . ونزولهم عند ذكر السلطان والدعاء له من الدرجة التي خطبوا عليها إلى درجة تحتها ، ويذكرون السلطان ويدعون له بصوت أخفض من صوت الخطبة . والمؤذنون من حين يدخل الناس إلى الجامع يوم الجمعة حتى يدخل الإمام وهم يقرءون آيات من القرآن وسورا بصوت رقيق حنين مبين مرتل ، يظن من سمعهم ولم يرهم أنهم صبيان صغار . وإذا قرب دخول الإمام قام رجل منهم يقف ويتكلم بكلام طويل بلسان الترك ، الله أعلم أنه يدعو لسُلطانهم ويَذكرُ مآثِرَهُ ومآثرَ سَلَفه ويَدْعو لهُم . ثمَّ إذا رَقيَ الإمامُ المنبرَ أذَّن المؤذنون هناك داخل الجامع .

ثم بقينا في هذه المدينة من يوم دخلنا إليها ونحن في ضيافة السلطان وإقامته تجري علينا في منزل رحمة ونعمة واسعة .ولقينا في هذه المدينة من فيها من الفقهاء والعلماء وأكثرهم حنفيون ، وبعض من وردها من فقهاء مصر شافعيون . وأما مذهب مالك فلا يذكر هناك ولا يَعْرفونَه . وكتُبُهُ إذا وَقعَتْ هُناك تُباع بأرْخَص ثَمَن . وأهْلُ تلك البلاد كلها على مذهب أبي حنيفة . وقد يرجع بعض من يرد ممن هو على غير مذهبهم من الفقهاء إلى مذهبهم ويترك مذهبه طالبا للجاه والمعاش معهم . إذ تلك المدينة ضيقة المعاش على الطاري والبادي ، ولو كانت كثيرة الأموال . ما رأيت أحرص على الدنيا ولا أكثر جمعا لها منهم ، يخدم أحدهم من يطمع أن ينال منه أو معه ولو فلسا واحدا ويتبعه

ويسعى في أغراضه ما دام طامعا فيه ، ويسافر في خطر البحر والبر إلى بلاد بعيدة ويقوده الحرص والطمع ولا عليه في ذلك . ولو أهدي لأحدهم ما يساوي درهما واحدا قام على ركبتيه وأخذه بين يديه جميعا ، وجعله على رأسه تعظيما للهدية وللمُهْدي. ومن طلب منه من هو معروف حاجة يشتريها يعطيها له ويتركها عنده ولو شهرا أو شهرين حرصا على البيع وجمع المال . ثم إذا وقع البيع وندم المشتري وطلب الإقالة أقالوه ، لا يمتنعون منه ولو بعد مدة ما لم يأخذ الثمن . فهم معظمون للدنيا وعارفون بقدرها ومتمتعون بها باللباس الرفيع والأكْل الموسَّع . وأمّا تزويجُ الحرائر وطلبُ الأولاد فَهُمْ أزهَدُ الناس في ذلك ، وإنما عندهم السريات والمملوكات من بنات الروم والشراكسة والصقالبة والمجوس . والمماليك عندهم أفضل من أولادهم وأعز بكثير يزوجونهم بناتهم . وحتى السلطان لا يزوج بناته إلا لمماليكه . والجهاد عندهم قائم مع الكفار على الدوام يسبون بناتهم ونساءهم وأولادهم ويجلبونهم إلى أسواق المدينة . والسلطان يجبي من بعض بلاد الكفار الذين في طاعته أولادهم ويأتي من ذلك آلاف مُؤلَّفة ، يَضُمُّ السلطانُ لداره ولديار وُزَرائه وجُنْده ما يختارونَهُ منْ ذلك يربونهم على الإسلام ويعلمونهم القراءة والكتابة ، يقولون لهم عجم غلمان . ثم بعد ما تتميّز عقولهم ويظهر النجيب من غيره يختارون من يرون فيهم أهلية لخدمة السلطان فيثبتونهم في ديوان الجند . فمنهم يكون جند السلطان كله من الوزراء ومن دونهم . وأما الترك فإنهم لا يدخلون تركياً في جندهم ولا يثبتونه في ديوانهم ولا يقبلونهم أصلا . وإنما يَتَمَعَّشونَ في المدينة بحِرَف خَسيسة من الحمْل علَى ظهورهم على برادع يحطونها على ظهورهم كالبغال . يحمل الواحد منهم ما يحمل الجمل . وحتى إخوة سلطانهم إذا مات والدهم أخفى الوزير موته وبعث إلى المدينة التي يكون بها ولي العهد ، فيقدم المدينة ليلا ويدخل من باب البحر فيقتل

جميع إخوته تلك الليلة حتى الحوامل من نساء والده ، ولا يؤخرهن حتى يلدن ، ويخرجهم غدا مع والده مكفنين ويدفنونهم . فينفرد بالملك بغير منازع ولا مشوش ، كذلك دأبهم.

والذي أخذ هذه المدينة من الروم وأنقدها من الكفر السلطان محمد، افتتحها. واسم هذا الذي وردنا نحن عليه بالهدية السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان.

ثمَّ ما لمْ يَخْتاروا[1] من أولاد الروم وسَبْيهم أخْرجوهُمْ إلى السوق للبيع وما رُبّيَ في الدار وأدّب وعُلم الغناء والصنائع يُباع بأغلى قيمة من المجلوب إناثا وذكورا ، كل على قدر معرفته وحذقه في صنعته من الغناء واللهو والطرب والخياطة والطرز . وقد اشترينا منهم جماعة لأولاد السلطان وغيرهم أغلاهم قيمة علجة اشتريناها بألفين ومائة أوقية سوسيَّة . وفُقهاؤهم يُدرِّسونَ فقْهَهُمْ والتفسيرَ والنحْوَ والتصريف والبيان والبديع وعلم الكلام وغيرها . وكتابهم في النحو : **كافية**[2] ابن الحاجب . والكتب بهذه المدينة لا تعدّ ولا تحصى ولا نهاية لها ، والخزائن والأسواق مملوءة بها ، جُلبَ إليها كتب كل بلد . جلبنا منها ما يسره الله سبحانه وتعالى من كتب مفيدة . وسمعنا ممن لقيناه بها من الفقهاء وروينا عنهم وكتب لنا بعضهم بخط أيديهم وتبركنا بهم والحمد لله .

---

1) جملة مبهمة في جميع النسخ : فالنسخة م 1 تعطي "ثم ما اختاروا" وكذا في م 2 أما م 3 فترسم "ذكر ما اشترينا" وتتبعها م 4 . ويظهر أن هذه الجملة معطوفة علي الفقرة الواردة خمسة عشر سطرا قبل هاته . والتي تحدث فيها الدرعي عن السبي : "ثم بعدما تتميز عقولهم ويظهر النجيب من غيره يختارون من يرون فيهم أهلية لخدمة السلطان ..." .

2) الكافية في النحو لجمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي المتوفى 646/1248.

الفصل الخامس :

من القسطنطينية إلى تطوان

فلما حان وقت السفر وتيسر، أُذِنَ لنا في الدخول على السلطان للوداع . فدخلنا عليه في القبة التي سلمنا عليه فيها يوم ورودنا على العادة ، وكسانا كسوة جيدة رفيعة قبل دخولنا إليه ، فسلمنا عليه ، وخرجنا . وعلى باب القبة مماليك مصطفين يحار الطرف في حسنهم ولباسهم ويعجز اللسان عن وصفهم . وناولنا أجوبة كتب الخليفة السلطان مولانا أحمد الشريف الحسني ، وهدية عظيمة مكافأة ، وبعثوا معنا رسولين منهم .

فخرجنا في حفظ الله وركبنا السفينة عشية يوم الأحد[1] سابع شعبان من العام المذكور، وهو آخر يوم من ميه . وأقمنا ثلاثة أيام عَلَى دار القَبْطان بموضع يَقولونَ له بْشقطَسْ[2] من جهَة الغَلَطة في قبلتها . إذ هناك الغلطة ، وجوارها يسكن قبطان البحر والرياس والبحريون كلهم ، لتكون السفن بمرأى منهم ومسمع . وكذلك يأتيها الغرباء والضعفاء كثيراً ، لتيسُّر أسباب المعاش على الأكابر والتجار .

ثم سافرنا بكرة يوم الخميس في سلامة الله وحفظه في عشر سفن، بعدما سلموا على السلطان بمدافعهم وهو في نزهته على البحر. ورجعنا على طريقنا حتى خرجنا من البغاز، فرجعنا على اليسار ، فجُزْنا على جَزيرة تُسَمَّى مدِلُّ[3] ومنْها إلَى سَقِسْ[4] ومنها تَفْتَرقُ

---

1) يُوافقُ يوم 7 شعبان 998 يومَ اثنين (11 يونيه 1590) .

2) Bechiq-Tach من أحياء ضواحي مدينة القسطنطينية ، يطل على البوسفور . [هامش ك ، ص:69.]

3) Midillon

4) Saqis، وقد سبق أن ذكرها الدرعي في طريقه إلى القسطنطينية .

السفن: من يسافر إلى مصر والشام يذهب يسارا، ومن يسافر للغرب يذهب يمينا. وقد ذهب بعض السفن التي خرجت معنا لمصر والإسكندرية.

ثم لما سافرنا منها إلى قزل حصار[1] أخذتنا فرتونة عظيمة في بحر عظيم بعيد المسافة مائة ميل. فهال البحر وعظم الموج واشتدت الرياح وعظم الكرب واشتد الخطب، وماد الناس وانقلبت أجوافهم بالقَيْء. وما زالَت الحالُ في زيادة شدَّةٍ إلى أنْ جئنا إلى مَخْرج ضيق هناك بين جبلي جزيرتين يخرج منها إلى مرسى قزل حصار المذكور. فهناك أيقن الناس بالهلاك من شدة اضطراب البحر بالريح وبصدمة تلك الجبال. فهاج الموج وعظم ووقف كالجبال العظيمة. ووقفت السفن ولم تجد مسلكا في ذلك المضيق، ولا قدرت أن تقرب من الجبال. فتحير الرياس وسلموا في الأمر إلى الله، وما بقيت لهم حيلة. وصار الموج يرفع السفن إلى النجوم ويحطها إلى التخوم، ويميلها يمينا وشمالا، حتى تغيب جوانبها في الماء وتغرف الماء. وتكسرت المقاذف وعم الموج كل من فيها حتى ما بقيت خرقة ولاحاجة إلاّ وابتلت بالماء. وكل واحد ينادي نفسي نفسي لا أسألك اليوم غيرها، لا يلتفت أحد لمال ولا ولد، ولسان الحال ينشد :أنا غريق فما خوفي من البلل.

ونحن في ذلك الأمر الفظيع إذ رأينا سفينة صدمتها أخرى فمالت وغاصت في الماء وأيقن أهلها بالغرق وظنوا أنها تكسرت وتفتحت. فجعلوا يصيحون ويبكون ويرمون أمتعتهم في البحر. وهل يسمع الموج شَكوَى الغَريق؟ ورَمَى كلُّ مَن عَرفَ العَومَ منْهم نَفْسَه في البَحْر، وحاولوا التعلق بمن قرب منهم من السفن الأخرى. وقلت أنا من شدة

Qizil-Hisar (1

الفزع : ما لأصحاب تلك السفينة يصرخون ويرمون أنفسهم في البحر ؟ فقال لي رجل من البحرية بكلام نشط خائف فزع : اقرأ وادع الله وارغبه في السلامة فنحن غرقى. فابتهلت إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرع والالتجاء :

ولما ركبنا البحر يسبح فُلْكُنـا	ولم نـر غير الله مالاً ولا أهلا
دعوناه بالإخلاص والموج طافـح	بصدْقٍ وما من غيره نرتجي فضلا
فيا منقذ الغرقى ويا مُلْهِمَ التقى	ويا صمدٌ يبقى إذ أذهب الكلا
إليك يذل البر والبحر خاضـعـا	فحق لهذا الخلق أن يألف الـذلا

صدق الله العظيم : ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه﴾[1] والكثير من التذاييل يصير عند سماعه قليلا. كما أن القليل منها يصير عند مشاهدته كثيرا ، والأخبار كلما كانت أشد على من شاهدها كانت أطرف عند من سمعها ، وأهوال البحر وعجائبه لا تحصى ولا تنحصر، والشيء يسمع فيحقر حتى يبصر .

لا يعرف البحر حقا غير راكبـه	إلاّ من رآه وإلاّ المحزونـون بـه

ثم يسر الله تعالى برحمته وألهم رايسا فدار بسفينته وحاول حتّى رجَعَ عنْ يَساره ودارَ مَعَ جَزيرة يُقالُ لَها أنْدرَ[2] بَعيداً منْ جبلها ، وسار حتى استكن بها وجعلها بينه وبين مهب الريح .فتبعه سائر السفن حتى دخلوا إلى مرساها ولجؤوا إليه واستكنوا فيه ، وبه لاذوا وسلموا بعد أن لم يكادوا . فضجّ الناس سرورا بالدعاء وأعلنوا بالحمد والشكر لله والثناء . فيالها بشارة ما أحلاها في النفوس وأوقعها في القلوب. فما ظنك ببشارة أعلنت بالكرم والجود وأعلمت بالخروج

1) قرءان كريم ،الإسراء،67.

2) Andra/Andros

من العدم إلى الوجود . وقلت لخاصة أصحابي اللهم هذه الجزيرة فَأْلٌ مليح بان لنا . فقال : إذا أشرفنا على بلادنا وادي درعة إن شاء الله هان درا . وهان بلساننا نحن معناها هو .

لئن قرّب الله النوى بعد هذه وقَرّت لنا بالاجتماع عيون
غفرت لهذا الدهر كل ذنوبه وما كان من زَلاَّتِه ويكون

وقد كنت كلما اشتد بي ألم الغربة وضاق مني الخاطر ، أرى والحمد لله من الرؤيا والفال ما يشرح خاطري ويذهب جزعي ويسليني ، ببركة التجلي إلى الله بالدعاء والتضرع إليه والتوسل إلى الله سبحانه بأسمائه وصفاته ، وملازمة ذكره والتوسل بأنبيائه وأوليائه . من ذلك أنّي رَأَيْتُ مَرَّةً في النوْمِ أنَّ سفينةً دَخَلَتْ بنا وَجَرَتْ في مَصْرف ضيق كان بباب ديارنا بدرعة، إلى أن وقفت بنا على باب دارنا. فجعلت أتعجب من ذلك في النوم وأقول : كيف دخلت السفينة إلى هاهنا ومن أين دخلت وكيف حملها هذا المصرف ؟ ثم استيقظت فأولتها بالسلامة من سفرنا والرجوع إلى أوطاننا . فكان كذلك والحمد لله ، وكانت هذه الرؤيا ونحن بالقسطنطينية .

ثم انتقلنا من مرسى أندر بعد سكون البحر إلى مرسى قزل حصار، ثم منه إلى منكشة ، وهي في لسانهم بمعنى زهر البنفسج لكون المكان الذي بُنِيَ فيه ذلك الحصْنُ يُنْبتُهُ كثيراً ، ثمَّ إلى مَرْسى قُرُنْ[1] . وهُنا لَقِينا فَرغاطة للنصارَى ، فيها خَمْسُ وثلاثونَ كافرا ، ويَقْطعون على المسلمين ويرصدون منهم الغرة فأخذناها . ثم إلى مرسى مدند[2] إلى مرسى ادزن[3] وهو مرسى واسع جدا ضيق المدخل عليه حصن يمنعه

---

1) Qoron
2) Modon
3) Dzon

من العدو . والمراسي بيد التركي كثيرة جدا ، وهي أكثر من مراسي بلاد الغرب وأحسن . ثم منه دخلنا مواسط البحر نقطع عرضه وذلك ضحى يَوْم الأَرْبعاءِ أولَ يَوْم من رَمضان عامَ ثمانية وتسْعينَ وتسْعمائة وهو رابع عشر من ينيه[1] . فسلمنا الله وقطعنا البحر، فجئنا لمرسى طرابلس ضحوة يوم الاثنين الذي بعده ، ما رأينا في البحر ريحا ولا عطشا إلا ريحا طيبة موافقة للغرض والحمد لله . إلا أن القرية يوما . وهي الخشبة التي يعلق عليها القلاع وترفع على الصاري وتعترض على رأسه . انكسرت وهي في أعلى الصاري وعليها القلاع منشور . ففزع الناس وبادر الرايس إلى إنزاله . فساروا بالقدف فغلبهم الحال، لكون المسافة أكثر وأعظم مما يسار فيها وتقطع بالمقاذف . وقد سكن عنها الريح يوما في طلوعنا إلى اصطنبل في المواسط فتحركوا قليلا بالقذف ثم غُلبوا فسلموا الأمر ووقفوا على ظهر الماء طول ذلك اليوم ، حتى فَتَحَ اللهُ في الريح عَشيةَ النهار وفي الليْل ، فسرْنا به وشاهدْنا في ذلك قَولَ الله تعالَى : ﴿ومن آياته الجواري في البَحْر كالأعْلام ، إن يَشأ يُسْكن الرياحَ فيظْلَلْنَ رواكدَ علَى ظهره، إنَّ في ذلك لآيات لكلِّ صبَّار شكور﴾[2] . ثمَّ إنَّ رايسَنا أطلقَ الدخانَ فلَمَّا رآه أصحابُ السُّفن وكان باشا تونس جاء معنا واليا عليها من اصطنبل ، أخذ رايس سفينتنا بالحبال في مؤخر سفينته ، يجرها حتى أصلحوا القرية إصلاحا وصلوا به إلى البرِّ فجَدَّدوها. وكذلك عادةُ السفن ، مَن نابَه أمرٌ في موضع لا يمكنه إلا الوقوف والتخلف منهم أطلق الدخان ، فمن رآه من أهل السفن لا يمكنه إلا الرجوع والالتفات إليه، ليعلم ما نابه . وما رأيت مثل أدبهم وطوعهم وانقيادهم لمن قدم منهم وأمَّرَ في حضر أو

1) يوافق فاتح رمضان 998 يوم الاربعاء 4 يوليوز 1590.

2) قرءان كريم ، الشورى، 32-33.

سفر برا وبحرا لا يمكنه أن يخالفه أحد من تابعيه أو يتخلف عنه إذا نهض أو سافر ، ولا أن يراجعه في أمر ولا أن يتعقب أمره ورأيه . ولو علم أنه على غير السداد . وأن العطب فيما نهض إليه لا يمكنه إلا اتباعه ويسلم الأمر إليه ويتأدب بين يديه ، ويصبح عليه ويمسّي ولا يشير عليه إلا إذا استشاره، ولو كان أكبر منه سنا وأفضل منه حسبا ونسبا . وما وجدوا البركة ونصروا على العدو إلا بذلك .

فنزلنا بطرابلس وأقمنا بها أيّاما.

قال ابن عبد ربه : طرابلس مدينة عتيقة أي قديمة على ساحل البحر، وهي من عمل إفريقيا وتعرف بالمدينة البيضاء . تحط بها السفن من الإسكندرية وجميع البلدان ولها سور حصين . وفيها تحصّن زيادة الله ابنُ الأغْلَب[1] حينَ فَرَّ من الشيعي بأهْله وماله حَتَّى تَوَجَّهَ إلى الشام. ونساؤها لا يتزاورن إلاّ ليلا تشبيها لهم بأهل الإسكندرية .

انتهى نصه . وسميت إفريقيا لأنّها فرقت بين المشرق والمغرب ، فهي المغرب الأوسط.

ثم سافرنا من طرابلس يوم الأربعاء خامس عشر من رمضان وهو ثامن يليه[2]. وجئنا جزيرة جربة ضحوة يوم الخميس وأقمنا فيها نحو خمسة أيام لريح هبت علينا شديدة ثم منها إلى صفاقس ، ثم منه إلى المنستير، ثم منه إلى سوسة.

قال ابن عبد ربه : سوسة مدينة قد أحاط بها البحر من الجنوب والشمال والشرق ولها ثمانية أبواب ، أحدها باب كبير شرقي يعرف

---

1) زيادة الله ابن إبراهيم ابن الأغلب رابع الأغالبة ، توفي سنة 223/838.

2) يوافق يوم الأربعاء 15 رمضان 998 يوم 18 يوليوز 1590 .

بباب دار الصناعة منه تدخل المراكب وتخرج . ولحم حيوانها مشهور باللذة والطيب . وتختص برقيق الثياب وجيد الأمتعة وبرقة ثيابها يضرب المثل في بلاد المغرب ، وكان افتتحها عبد الله بن الزبير وهو أمير لمعاوية ابن حديج من قبل معاوية بن أبي سفيان .

قال البكري : مدينة سوسة ممتنعة على من رامها وقد جُبلَ أهلها على الشدة والنجدة. وقد حاصرها أبو يزيد أشهرا في ثمانين ألف فارس فانْهَزَمَ عنْها. وفي ذلك قالَ سَهْل بن هارون الوراق[1] :

إن الخوارج صدها عن سُوسَةٍ ... منَّا طعَانُ السُّمْرِ والإقْدَامُ
وجِلَاد أسياف تطايرُ بينها ... في النَقع دون المحصنات الهَامُ

قوله: دون المحصنات، قاتلوا فمنعوا نساءهم . وقال أبو فتح السوسي :

أَلَمَّ بسوسة وبغى عليها ... ولكن الإله لها نصير
مدينة سوسة للغرب ثغر ... تدين لها المدائن والقصور
لقد لُعِنَ الذين بغوا علينا ... كما لعنت قريظة والنضير
أعز الدينَ خالقُ كل شيء ... بسوسة بعدما الْتَوَت الأمور
ولولا سوسة لَدَهْت دواه ... يشيب لهولها الطفلَ الصغير
سيبلغ ذكر سوسة كل أرض ... ويغشى أهلها العدد الكثير

وهذه الأبيات تدل على أن أبا يزيد لم يدخلها. قال ابن عثمان الدقيق : دخل أبو يزيد سوسة وقتل أهلها وسبى حريمها ، فيمكن أن ذلك مرة أخرى .

---

1) الكاتب الأديب المتوفى سنة 830/215.

قال البكري : والحياكة بسوسة كثيرة ، ويغزل بها غزل يباع وزن مثقال منه بمثقالين من الذهب . وبسوسة تُقَصُّ ثياب القيروان الرفيعة وبينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلا. انتهى نصه.

وسوسة لم تبق اليوم على ما ذكرها به هذا الإمام بل ضعفت كثيراً وَقَلَّتْ عمارتُها ، وما زالَ اليَوْمَ يُنْسَجُ فيها مَقاطيع كتَّان جيد رفيع، كتانها وكتان تونس أفضل من كتان إفريقيا كلها . وبداخل سورها نخيل كثيرة في أثناء ديارها ويحرث فيها وفي المنستير النيل ، كما يحرث ببلادنا درعة ، والزيت فيها كثير . ثم سافرنا منها - عن إقامة أربعة أيام ، آخرها يوم عيد الفطر، بعدما صلينا العيد في جامعها - إلى مرسى قليبية. ومنها تدخل السفن غالبا البحر يقطعون عرضه لبر الترك ، لا يذهب إلى طرابلس إلاّ من له غرض بها ، وبينهما نحو أربعمائة ميل . ثم سافرنا منها إلى غار الملح، فحبستنا فيه ريح غَرْبِيَّةٌ يَوْمَين . ثمَّ منْهُ إلى بَنْزَرْت يومَ الاثنين خامس شوّال وسابع عشرين من يليه[1]. وأقمنا بها إلى يوم الاثنين ثالث ذي القعدة. ومنه دخل الباشا تونس. وبنزرت كثيرة الزرع رخيصة السعر كثيرة العنب والتين، وعنبها أجود من عنب تلك السواحل كلها ومنها يجلب إلى تونس .

وقال أبو البقاء خالد ابن أبي خالد رحمه الله : وممن لازمته كثيرا في رجوعي بحضرة تونس الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الأنْصاري المعروفُ بالرُّصافي[2] شيخٌ صالح ، غادٍ في طاعة الله رائح، مصمم في الحق ، آخذ بالجد والصدق ، لا يخالط أحدا ولا تراه

---

1) يوافق يوم 5 شوال 998 يوم 7 غشت 1590، وهو يوم ثلاثاء.

2) الرصاعي /الرضاعي .

إلاّ منفردا ، مشتغل بالعلم والعمل ، خال من الحرص والأمل ، محافظ على أوْقات العبادة ، مُتَقَشِّفُ في أحْواله تَقَشُّفَ الزهادة ، مُقْتَصِدٌ اقتصاد العليل ، مقتصر على أقل القليل ، قد استعد للرحيل وشمر للعبادة بجسمه النحيل ورسمه المحيل. فاستنفذ الدهر علالته واستنشق بلالته وغادره كالخيال الشعري والغرض الأشعري . فهو يتظاهر بشعار المتخلص ويسفر عرس عوف من محلم عزيز النفس قليل الحرص ، قوي المنة ، علي الهمة ، مقبل على الأمور الدينية المهمّة ، مهتم بما ينيله خير الدارين ، قليل العيال ، وقلة العيال أحد اليسارين ، قد سلك في العزلة أحسن المسالك وعمل على ما قاله إمام البلاغة سهل بن مالك[1] :

مَنْ كانَ ذا بَلَد أوْ كانَ ذا وَلَد ... مُنَغَّصٌ العيش لا يأوي إلى دَعَة
سكنى مكان ولم يسكن إلى أحد ... والساكن النَّفْسِ من لم ترض هِمَّتُهُ

له حظ من الأدب وافر ووجه بمحاسنه سافر ، وعناؤه بها مكاثر وإمامٌ ناظمٌ ناثر، رحلَ إلى المغْرب في زَمان شَبابه ، وَسَلك سَبيلَ الهدى ودخل من بابه ، فلقي جماعة من جلة العلماء وعلية الفضلاء منهم الشيخ العالم الناثر الناظم أبو الحكم مالك بن المرحل[2] وغيره . قرأت عليه كثيرا من نظمَه وأجازني وكتب لي بخطه ، وقرأت عليه نظمه الذي خَمَّسَ فيه قَصيدةَ أبي إسْحاق إبراهيم بن سَهْل الإشبيلي الإسلامي[3] التي أولها : تنازعني الآمال كهلا ويافعا.

---

1) سهل بن محمد بن سهل بن مالك الغرناطي ، أديب شاعر ، له مجموع في اللغة العربية رتب فيه الكلام على أبواب سيبويه ، توفي سنة 1242/639.

2) مالك بن عبد الرحمن بن فرخ ، أديب شاعر من أهل مالقة ، ولد بها وسكن سبتة وولي القضاء بغرناطة وتنقل بين سبتة وفاس إلى وفاته بها سنة 1300/699.

3) أصله من إشبيلية وسكن سبتة ، توفي سنة 1251/649.

وأخبرني رضي الله عنه قال : لما خَمَّسْتُ هذه القصيدة العينية ، كنت رمد العينين ، فساعة ما أتممت تخميسها برئت من الرمد وشفاني الله تعالى ، وعاد بصري أحسن مما كان ، ما شكوته بعد إلى الآن مع أني كبير السن ، والحمد الله .

وأخبرني بمدينة سبتة شيخي أبو الحكم مالك بن المرحل رحمه الله تعالى ، قال: كان هنا معنا أبو اسحاق ابراهيم ابن سهل المذكور ، وقد حسن إسلامه ولازمت الجماعة صلاته. ولزم القراءة واشتغل بها ، ونظره في الأدب يتسع في الشعر . وكان من جملة أبي علي بن خلاص صاحب سبتة ، إلى أن عين ابن خلاص ولده رسولا إلى الملك المستنصر ملك تونُس وَوَجَّهَ ابنَ سَهْل مَعَه، فركبا في البَحْر في غُراب وسَارا إلى أن هال البحر فغرقا معا وكل من كان راكبا معهما ولم يخرج منهم واحد. ولما بلغت المستنصر وفاة ابن سهل في البحر قال : أعيد الدر إلى وطنه. وأنشدني لأبي اسحاق المذكور .

تركت هدى موسى لحب محمد ... ولولا هدى الرحمان ما كنت أهتدي
وما عن قلا مني تركت وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

وممن لازمت تعليمه ولزمت تعظيمه الشيخ الإمام الفقيه الإمام أبو عبد الله محمد بن هارون[1] أبقى الله بركته ، إمام في الفقه وأصوله وعلم الكلام وفصوله ، متوصل بالكد والجد إلى فصوله. فهو عَلَمٌ من أعْلام المعارف، ومُعَلّمٌ لأعْلام الحلَل الدينيَّة والمطارف ، نَبغَ بما وَعَى من العلم الأصيلي المعرق ، وشفع ما استفاده من علماء بلدة تونس باستفادته من علماء المشرق . وأظفرته رحلته بالمبرزين العلماء المدرسين القدماء ، وآب من رحلته وقد قضى بمنه فرضه ، واشتاقت إليه أرضه

---

1) الكناني ، فقيه مالكي من مدرسي جامع الزيتونة بتونس . توفي سنة 750/1349.

وكمل فضله . واشتمل على الكلام الإنساني نقله وعقله . فانبسط في العلْم بنباهَته ، وانْقَبَضَ عن العالَم بنزاهَته، ولزِمَ مُطالعةَ حُذاق دواوينه وحدق إلى متونها عيون حدقته وفهمه ودينه فنفع الله بعلمه بَشَراً كثيراً، وأوْدعَ لهُ في قُلوب عباده من القَبول حَظاً كبيراً . ولوْلا ما رزق من الزهد والقناعة لعلق به قضاء الجماعة ، فنيطت به أحسن تلك المدارس وغبطت منه بالفوارس وأي الفوارس . فقام العباد بحقه وصَدَّقوا فيه الخبَرَ النبَوي فلمْ يَتَمارَوْا في صدْقه ، وعَلمُوا أنَّهُ هُوَ السابق في هذا المضمار الذي لا يترشح أحد لسبقه . فازدحم لإفادته أفواج الناس، واقتبسوا علمه وهو النور الذي لا ينقص بكثر الاقتباس ، حتَّى أقرَّتْ له الساداتُ بالتسْديد ، وأحْيَى اللهُ به سُنَّةَ الاجْتهاد حينَ وقف غيره على سنن التقليد . فبرز في ميدان تدريسه بما برز وأحرز من خصل السبق ما أحرز من جلالة القدر وسعة الصدر وحسن الخلق واعتدال الخلق وسهولة العبارة وصناعة صياغ الكلام للبداوة والحضارة . وقمع الباحث الملد ، ومزج ألفاظ الهزل بالجد ، كامتزاج النار بالماء في الخد . إلى تآليف قد اختص فيها بفصاحة البراعة واقتص فيها أوضح طرقَ العبارة ، فأحْكمَ أصولَها ، وأتْقنَ فُصولَها ، وركبَ علَى عواملها المتفقة نصولها وأحسن فيها ترتيب الإيراد والاعتراض ، والقصد إلى توفية الأغراض . هذا إلى الاختصار والإيجاز ، والمأخذ الذي يكاد ينتسب إلى الإعجاز ويستوفي الإيداع في ذلك . وكله ببديهة ملاحظة للغايات البعيدة ، في اللمعة السريعة القريبة . فإليها يطمحُ الأمَل ، وبها الاعْتمادُ وعليْها العَمَل ، وكانتْ لي بَينَ يَدَيْه الكريمتَين دول مأثورة له فيها حكم منثورة ، فإني كنت قارئ تلك الفصول ، وباري تلك النصول ، والمعيد لما يبدي ، والسبب فيما يهدر من ذلك ويُبدي . فيَسْحرُني رئيسُ الحاضرين بحُسْن إلقاء ، ومَلاحة إشارة وإيماء ، ونيل

تنبيه ، ولطف توجيه وإصابة تعطير ، وإجادة تنقير ، وقل ما ترى العين أوتسمع الأذن بأفضل في الأصول وأبرع في الفروع ، وأبدع في نقد الكلام وسبكه ، وأعرف بتآليف ابن الحاجب وفتح مقفلاته ، وحل مشكلاته منه ، رضي الله عنه. وقرأت وسمعت عليه كثيرا من تآليفه ، منها شرح **مختصره** الأصولي وشرح **مختصره** الفروعي وغير ذلك وَسَوَّغَني الروايةَ في جَميعها بالمناولة والإذْن ، وأجازني في جميع ما يحمله ويرويه وكتب لي الإجازة بخطه. ومولده سنة ثمانين وستمائة .

ثم نضيف إليه ونعطف عليه ، من تبركت بالمثول بين يديه ، الشيخ الفقيه العدل أبو زكرياء يحيى ابن الشيخ الفقيه العدل المرحوم أبي اسحاق ابراهيم بن الشيخ الفقيه القاضي المرحوم أبي زكرياء يحيى بن يوسف بن ادريس الحسني الشهير بالسلاوي، أبقى الله بركتهم بمنه، شرف يا له من شرف ، وسلف كريم خلف أكرم خلف ، وبيت أصيل شمخ في حرْز مَنيع وعزٍّ مُكتنف ، فطالَ بالعلياء شَغَفُه، وزاحم منكبَ الجوزاء شرفه. وشرف بقومه وشرف به قومه ، وزاد على أمسه في الفضل يومه. نشأ نشأة صالحة وركب إلى التقوى طريقا واضحة ، فاهتدى لسنن مبين واقتدى بسند متين ، وجمع له بين حسب وعلم ودين . هذا إلى كرم النجار ، وعرق المنتمى ، وطيب الأرومة ، وتشريف الحي ، وطهارة البيت ، وزكاء العقب . فما حملت الأعلام وجملت الأسياف والأقلام إلا دون محله العالي ، وبمعزل عن منزله السَامي . فهو بحر حصاه الدر النفيس وروض يجنى منه أطايب الثمر الجليس برز من التوفيق في أحسن حلية وبرزَ في التوثْيق ، وكانَ عنْه في عبيتة إلى وقار لا تحل حباله وصون لا يتسنم الدنس رُباه ، وسؤدد على رغم أباه، من أشبه أباه فما ظلم ، ومن سعادة المرء أن يشبه أباه .

أشبه أباه فصار في أعـــراقـــه متوغلا وجرى إلى مضمــاره
فوفــاؤه كوفائــه وحيــاؤه كحــيائه ووقاره كوقــاره

رحل إلى المشرق عام ثمانية وثمانين وستمائة[1] فحج وزار ، وحط الذنوب والأوزار، ولقي المشائخ فروى عن جلة . وعاد في كثير من الفَوائد وغَيْرُهُ في قلّة . حَضَرَ تدريسَ الشيخ الإمام الكبير قطب الدين القسطلاني وغيره من الأئمة الكبار وحاملي الآثار . ثم آب عن يسير من السنين ورأى قرة العين في النفس والمال والبنين . قرأت عليه بمنزله المبارك من حضرة تونس المحروسة جميع كتاب **موطأ** الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه في أوائل شهر ربيع الأول المبارك من عام أربعين وسبعمائة . وقرأت عليه أيضا بمنزله المبارك جميع تخميس القصيدة النبوية **الشقراطسية** الشهيرة بتخميسها للإمام القاضي أبي عمرو عثمان بن عتيق القيسي مع القصيدة المذكورة . ولم يأت أحد لها بمثْل فيما علمْت ، وقرأتُ وسَمعْتُ عليْه غيْرَ ذلك ، وأجازني وكتب لي بخط يده . ومولده في أواسط عام خمسة وستمائة .

ثم نردفه برفيقه ومحل أخيه شقيقه ، الشيخ الفقيه الخطيب أبي محمد عبد الله بن الشيخ الفقيه الجليل أبي عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه القاضي العالم المصنف أبي القاسم بن علي ابن عبد البر التنوخي. هذه بيت غذيت بالعلم والأدب ، وبنيت على المجد والحسب ورتبت في أعلى الخطط وأسنى الرتب ، فإليهم ينتهي في حسن النقائب وبفواضلهم تنطق ألسنة الحقائب .

قطفوا ثمار المجد من غرس العلــى بأكفهم ، فلنعم غرس الغــارس
فهم لباب المجد عزة أنــــفس وذكاء ألباب وطيــب مغــارس

---

1) كذا في جميع النسخ ، ويقارن بتاريخ التقاء البلوي به في تونس وهو سنة 740 وبتاريخ ميلاده وهو 605.

ما منهم إلا عالم أوحد لا ينعت ولا يُحَدُّ . ولهم بالدولة الحفصية سبق يذكر وحق لا ينكر . والقاضي أبو القاسم جدهم به سفر مجدهم ، وهو الذي عمر ربع الملك وأمر بالحياة والهلك ، ودبّج القرطاس وبَوَّبَ ودوّن العلم وصنّف . وشيخنا الخطيب أبو محمد هذا بديع الإحسان بليغ القَلَم واللسان ، قد أتاهُ اللهُ مقاليدَ هذا الشأن ، وَملكَ بنانُ فَضله أعنة المعاني وأزمة البيان ، وأقام من البراعة على منابر أنامله إظهاراً لعجز البلاغة ، خطيب مشقوق اللسان . فهو ذو الفضل والكرم والسيف والقلم والعلم الذي يخفق لنشره العلم ، تأوي وفود السعود إلى حرمه ، وتروي أخبار الندى عن كرمه ، وتحلي المسامع بما تمنحه من أمالي كلمه، وتنقل إلى رياض الكمال الطّامية ما شهدته دوام ديمه ، فلاحت مكارم الأخلاق وأخلاق المكارم تشام من برق شيمه ، وأحرار المحامد ومحامد الأحرار تعد من إمائه وخدمه ، بمنّ الله تعالى وفضله وكرمه . لقيته بمنزله المبارك بحضرة تونس ، فقرأت وسمعت عليه به ، وبالجامع الأعظم المشهور بجامع الزيتونة، تصانيف وأجزاء . فإنه لما خيرته المحاسن في أنفُسها ، اختصّ بأنفعها وأنفسها. وحكمته السيادة في معاليها فحكم من الأوامر والأمور عاليها . مما أقام به من الدين ومتونه وإقامة الفرائض المكتوبة بجامع الزيتونة إلى غير ذلك من الخطابة بالحضْرةِ العليَّة ، والمراتب الساميَة السنيَّة . فكنتُ كثيراً ما أقرأ عليْه بالدويرةِ التي يَخْرُجُ منْها الخطيب ، وهيَ بإزاء المحراب من جهة اليسار. حدثني رضي الله عنه قال : حدثني جدي أبو القاسم المذكور ، قال : أنشدني بالقدس الشريف عند محراب زكرياء النبي عليه السلام ، الشيخ العالم أبو علي الحسن بن أحمد الأوقي ، قال: أنشدني الفقيه الإمام العالم أبو الجيوش عساكر بن علي بن نصر المقري، قال : أنشدني الشيخ أبو الحسن عبد الكريم التككي قال : أنشدني الصقلي بالإسكندرية لنفسه:

من فوق الصدغ يسطو لحظه عبثا ... بالخلق جذلان أن يشكو الهوى ضحكا
لا تغترر بورود فوق وجنته ... فإنما نصبتها عينه شركا

وحدثني أيضا ، قال : وحدثني جدي المذكور عن الحافظ أبي طاهر السلفي[1] أنه قال: أنشدني محمد بن علي السجلماسي المجاور بمكة شرفها الله تعالى بدار العجلة ، قال : أنشدني ابراهيم النحوي[2] بسجلماسة لنفسه :

زعموا أن من تباعد يسلو ... ولقد زادني التباعد وجدا
إن وجدي بكم وإن طال عهدي ... وجد يعقوب حين أصبح فردا

وحَدَّثَني ، قال : وحدثني جدي عن الشيخ المقرئ الصوفي الواعظ أبي عبد الله بن الجنان ، قال : كنت مع جماعة من أهل التصوف بإصبهان في رباط هناك . واجتمع أصحابنا ليلة في سماع ، فلما كان في أثناء ذلك بعد مضي جزء من الليل والوقت قد طاب ، إذ ضرب الباب ضارب . فخرج من سمع ذلك فوجد شيخا طويل القامة فقال : ما هذا ؟ قلنا: سماع اجتمع فيه الأصحاب ، فدخل فوجد القائل يقول :

خليلي لا والله ما القلب سالم ... وإن ظهرت مني مخايل صاح
وإلاّ فما بالي ولم أشهد الوغى ... أبيت كأني مثخن بجراح

فرمى للمنشد ما كان على رأسه ، ثم قال له : قل ، فقال :

يا بانة الجزع لولا رنّة الحادي ... لما تنقلت من واد إلى وادي
ولا سَألتِ بنعمانِ الأراكِ ولا ... شربْت ماء به يا نهلةَ الصادي

---

1) السقلي في م1 وم3
2) التجوري في م3.

فنزع فرجيته وبقي الشيخ عريانا وقال له : قل، فقال :

غرام ووجد واشتياق ولوعة ... وما ذاق إنسان من الحب ما ذقت
نحلت فلو علقت في جفن ذرة ... لطارت ولم تشعر بأني علقت
ولو نمت في جفن الذباب معرضا ... من السلْم لمْ تَشعرْ بأنيَ قد نمت
ولو أنفس قد أصابها ماأصابني ... من الشوق أو من حر أنفاسها ذبت

قال الشيخ أبو عبد الله بن الجنان : فصاح الشيخ صيحة عظيمة وشهق شهقة قوية ، وخرجت روحه، رحمة الله عليه . ولما أصبح الصباح وطلع النهار غسلناه وجهزناه إلى حفرته وتركناه في عظيم رتبته . وحدثني قال : حدثني جدي عن الشيخ أبي الفضل الهمذاني عن الشريف القاضي محمد العثماني قال : أنشدني الشيخ أبو بكر المبارك بن كامل بمكة شرفها الله تعالى ، قال : أنشدني أحمد بن عبد السلام المدني ، قال : أنشدني أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري[1]، قال : أنشدني أبو عبد الرحمان محمد بن الحسين السليمي رحمه الله ورضي عنه :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوقا
كم ذا وقفت بربعها مستخبرا ... عن أهلها أو صادقا أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في ربعها ... فارقت من تهوى فعَزَّ الملتقى

وليكن ختام علماء الحضرة الإفريقية وآخر المشايخ في الحلبة الشرقية من ختمت بجده حلبة الرسالة والنبوة ، وظهرت عليه بركة السُّلالة الطاهرة والبنوة الشيخ الفقيه الراوية أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن ابراهيم بن يحيى

---

1) المتوفى سنة 1072/465. من مؤلفاته : التيسير في التفسير ، لطائف الاشارات، الرسالة القشيرية .

بن موسى بن هاشم بن بحير بن جواد بن أبي فليته بن جواد بن محمد بن إدريس الأَصْغَر بن إدريس الأكبَر بن عَبْد الله الكامل بن الحسَن المثنى بن الحسَن السبْط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه إبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . حسب ظاهر ، ونسب طاهر ، ووجه زاهر وفضل كامل باهر. فهو من الأرومة السنية والدوحة المسنية . ولدته الرسالة فيا شرف هذه الولادة ، وشهدت لجده أكبر السبطين بالسيادة، وناهيك من نصب هذه الشهادة. فلله دره من راصف متواضع مع شرف الأبوة أيسامى شرفا أو يدانى بمفخر من له هذا الشرف الأطهر، أو يفاخر في محضر من ينتمي إلى السبط الأكبر ، بخ بخ . هذا المجد الأطهر والسؤدد الأتلد الأنور .

نَسَبٌ كأنَّ عَلَيْه من شمْس الضُّحَى نُوراً ومنْ فَلَق الصباح عَمُودا

كلُّ خطة عندَ ذا الشرف مُنْحطَّة، وكلُّ مَرتبة معَ هذا الحسب مثلبة. هذا معَ ما لهُ من البشر الرائق المحَيّا ، والنشر والأَخْلاق ، وطيب المحتد والأعراق بكرم عظيم وفضل عميم ، وقلب شفيق رحيم . فلا يزالُ في مُواساة وتفضُّل ، وإيثار وتطوُّل ، تُزَفُّ إليْه المكرُماتُ وتُوَصَّل. مَهَرَ في القراءات ، وتبَحَّرَ في الإسْناد والروايات ، وأبْدَى في ذلك العجائبَ والآيات . فأخَذَ عنْ خلائقَ لا يَحْصُرُهُم العدَد ، وانفردَ بذلك بما لم ينفرد به في ذلك القطر أحد . أفضل الفضلاء خلقا وأسمحهم نفسا وأحسنهم للإخوان مشاركة وأعظمهم للضعفاء مواساة ، وأكثرهم على عباده شفقة :

مناقب شمخت في كل مكرمة كأنما هي في أنف العلى شَمَمُ

لقيته بحضرة تونس قبل توجهي إلى الحجاز الشريف وبعد قفولي منه. فقرأت عليه أولا القرآن العظيم ختمة كاملة بقراءة الإمام أبي عبد

الرحمان نافع المدني[1] جمعا بين روايتي ورش[2] وقالون[3] عنه وكتاب **التيسير**[4] للحافظ أبي عمرو الداني ، وكتاب **الشهاب**[5] للقاضي القضاعي ، والقصيدة اللامية المسماة **بحرز الأماني**[6] في القراءات السبع للشاطبي ، رحمه الله ، وغير ذلك . وكمل لي عليه ما بين قراءة وسماع في المرة الأولى وفي الثانية من الكتب والأجزاء نحو السبعين تأليفاً ، وكتبَ لي إجازةً بخطٍّ يَده مؤرخة بتاريخ الخامس عشر لشوال سنة ستة وثلاثين وسبعمائة وخط فيها . مولده بتونس في شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وسبعين وستمائة . ومّما أنشدنيه بمنزله من الحضرة التونسية ، قال : أنشدني الشيخ الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري الحاحي[7] لنفسه وذلك في رجب الفرد سنة تسعين وستمائة ، معارضا لأبيات القاضي أبي الفضل عياض التي في كتاب **الشفا**[8] له :

---

1) أحد القراء السبعة ، توفي سنة 785/169.

2) عثمان بن سعيد ، غلب عليه لقب ورش لشدة بياضه ، أصله من القيروان ومولده ووفاته بمصر سنة 812/197.

3) إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة 966/356.

4) التيسير في القراءات السبع للإمام أبي عمرو عثمان ابن سعيد الداني المتوفى سنة 1052/444.

5) شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية ، للقاضي محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي المتوفى 454 / 1062.

6) حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع ، هي قصيدة تعرف بالشاطبية نسبة لناظمها أبي محمد القاسم ابن فيرة الشاطبي الضرير المتوفى سنة 1193/590.

7) لا يعرف تاريخ وفاته ، وهو صاحب الرحلة المعروفة برحلة العبدري ، والتي بدأها في ذي القعدة 688 (دجنبر 1289).

8) الشفا في تعريف (أو بتعريف) حقوق المصطفى ، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي المتوفى سنة 1149/544.

يا ساكني دار الحبيب عليكم | مني السلام بأطيب النفحات
يهنيكم قرب الأحبة فارحموا | صبا بكم قد صد بالزلات
كم ذا أعلل بالوصول إليكم | قلبا شجيا مضرم الجنبات
قد نلتم قرب الحبيب فأنتم | أبدا لذلك طيبو الأوقات
إن كنتم أهل اليسار فإنني | أرجو نماء بضاعتي المزجاة
حسبي فخارا أن مصباح الهوى | من قلبي المفؤود في مشكاة
فلأنْشُرَنَّ علَى ثَرى ءاثاره | منْ عِقْدِ جَفْني لؤلؤَ العَبَرات
حتى أرى القلب اشتفى من ظمأ | قاسيته في البعد طول حياتي
وأعفر الخد المصون بتربة | تُزري بعَرْف المسْك في النشَقات
بدر الدجى بحر الندى خير الورى | وملاذهم في عرضة الحشرات
ما لي سواه من المخاوف ملجأ | أرجو خلاصي عنده ونجاتي
صلي الإله وخلقه طراً على | من فاح منه معطر الروضات
يندى وينفح بالعبير نسيمه | ما شقَّ نجمٌ حالكَ الظلمات

وأنشدني أيضا قال : أنشدني الشيخ الفقيه الفاضل أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن خلف الغافقي القبتري[1] ، قال : أنشدني نجم الدين بن مهذب الدين :

دَمْعي المُنْهَلُّ بَعْدكُم من عيني | ما فيه لأجل بُعْدكم من عين
ما أَغْزَرَهُ كأنه من عين | بالعَيْنِ أُصبت يالها من عين

وأنشدني أيضا قال : أنشدني الشيخ أبو القاسم المذكور :

مَنْ بَلَّلَ شعر قاتلي من سَلْسَلٍ | من أَوْدَعَ ريقه رحيقَ سلْسلٍ
من عَلَّلَني بحبه من سلسل | يا عاذلي إن جهلت ما بي سَلْ سَلِي

---

1) القنبوري في م3 ، الفيتوري في م2

وأنشدني أيضا :

الـورد بوجنتيـك زاه زاهــــر والسحـر بمقلتيـك واف وافــر
والعاشق في هـواك سـاه ساهـــر يرجو ويخاف وهو شـاك شاكـر

انتهى نص أبي البقاء خالد ابن أبي خالد رحمه الله .

قلتُ ودويرةُ الخطيب المذكور عَلى يَسار محْراب جَامع الزيتونة . دخَلتها وتبركت بزيارة آثار الصالحين بها ، والحمد لله . وجامع الزيتونة له أربعة عشر بابا . ومدينة تونس لها سبعة أبواب .

ثمَّ سافَرْنا منْ بَنْزَرْت يومَ الاثنين المذكور في سَفينَتَين وجُزنا على طَبَرْقَة(1)، هي للنصارى سكنوا فيها في موضعين : أحدهما قلعة وهم تحت ذمة المسلمين يضيفون من مر بهم منهم أعطاها لكبير من كبرائهم سلطان الترك مكافأة ، لصنع صنعه معهم ، ويصطادون المرجان بزوارقهم تجري في البحر تغدو وتروح ، يرفعها الماء ويحطها ، بشباك يرمونها لقعر البحر ويجرونها فيتعلق بها أغصان المرجان . وهو ينبت في قعر البحر نباتا صغيرا مفرعا ، ولا يوجد إلا في ذلك المكان في هذا البحر .

ثم أرسينا في بلاد العناب. وأقمنا فيها يوما ، ثم سافرنا منه وجزنا على بجاية ليلا. وطاب لنا الريح ، فما أرسينا إلى الجزائر .

قال أبو البقاء خالد ابن أبي خالد الأندلسي الفتوري رحمه الله ، في رجوعه من رحلته : ثم دخلت بجاية المحروسة في يوم الأحد السابع عَشَرَ لشوال منْ عام أرْبعينَ وسَبْعمائة، فَنزلْتُ بها في قَصْر من الديار ودار من القُصور. دار تخْجَلُ منْها الدور ، وتَتَقاصَرُ عنْها القصور ، وتقرُّ لها بالقُصور .

---

1) وردت أيضا بشكل تبرقة .

دار مشى الإتقان فـي تنجيـدهـا حتى تناسب روضها وبنـــاؤها
مرقومـة الجنبـات ذات قـــرارة يمتد قدام العيـــون فضـاؤهـا
ما زال يضحــك دائمـا نـوارهـا في وجه ساحتها ويلعب ماؤهـا

ونحن في ضيافة السلطان أبي زكرياء يحيى ابن أمير المؤمنين أبي يحيى ابن أبي بكر الحفصي ، يطاف علينا بالطيبات والطيب ، بين العود الرطب وجنى الغصن الرطيب ، والنادي الذي احتوى على الشادي والأديب اللبيب ، وجمع مع الصديق الصادق والحميم الحبيب ، هو الفقيهُ الأجلُّ الفاضلُ الكاملُ أبو الحسَن عَلي بن مُحَمد الشهير باللخْمي. أحلّته هناك الأقدار واطمأنت به في تلك المدينة الدار ، ونزح في طلب العلم عن الأوطان حتى صار كاتبا لهذا السلطان أيده الله وسنا له الفتح. فتذاكرنا أزماننا بغرناطة سقى الله أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة . ولله أيامنا التي كانت بها موشية وعكوفنا على العلم فيها غدوة وعشية . وقد امتد ببغيتنا في ميدانها عنان ، وجربتني أمنيتها فيها جنان ، والزمانُ غلام ، والدنْيا تحيةٌ وسَلام ، والغُصْنُ رطيب ، وبردُ الشباب قَشيب ، والشمْلُ جامع ، والدهرُ مُجيب وسامع ، وأيامنا أعياد وللسعد في زماننا انقياد. ولا همّ إلاّ مباحثة أصحاب أو مجاذبة آداب ، أو ائتلاف على تأليف درر الفرائد وانتداب، فبالغ الزمان في تصريفنا حتى بلغ الغاية ، وأبدى من تغريبنا وتشريقنا العجب والآية . وذهب البين بنا كل مذهب، وقدر لنا أن اجتمعنا ببجاية :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

فتذكرنا الأسمار ، وتناشدنا الأشعار . وأنشدني من المقطوعات ما لمْ أرضَهُ ولا أثبتُّه، وكنتُ قديماً قدْ سمعتُه فنبذْتُه . فقال لي : إنما الإعراب للأسماء ولا يجوز التيمم مع وجود الماء ، إياك أردنا وأنت

فأنشدْنا . فأنشدْتُهُ في المعْنَى الذي أشارَ إليْه ، والموْرد الذي حامَ علَيْه، لجمال الدين ابن العطار رحمه الله تعالى :

إذا ما بدا مرخي الذؤابة وانثنى ضَحُوكَ الثنايا مرسل الصدغ في الخد
بدا البدر في الظلماء والغصن في النقا وزهر الربا في الروض والآس في الورد

وأنشدْتُه لبَعُض الفُضلاءِ من أهْل العَصْر :

تأملْ تجد خضرة الشارب الذي على الشفة اللمياء والمورد العذب
زمردةً خضراءَ فوق عقيقة وبينَهما سِمْطانِ من لؤلؤ رطب

وأنشدته لبعضهم :

لم يكفهم وهو روض حسن حراسة الأعين المراض
خافوا على زهره قطافا فشَوَكوا حائط الرياض

وأنشدته لأبي فراس الحمداني[1] :

من أين للرشا الغرير الأحور في الخد مثل عذاره المتحير
رشا كأن بعارضيه كليهما مسك تساقط فوق ورد أحمر

وأنشدته لابن المعتز :

يحيي النفوس إذا يشاء بقربه ويميتها بفتور طرف ساج
لاح السواد بخده فكأنه سبح أضيف إلى جوانب عاج

وأنشدته لأبي القاسم بن كامل :

وهويت مستكن اللواحظ أغيدا يُحْيي فُتورُ جُفونه ويُميت
للحسن كافور على وجناته ولصدغه مسك عليه فتيت

---

1) الحارث بن سعيد ، الفارس الأمير الشاعر المشهور ، توفي سنة357/968.

وأنشدته لابن كامل أيضا :

نبـت العـذار بخـده فـكأنـمـا ... نبتت بروضات الربـا ريحانها
وكـأنَّ نيـرانَ الـجَمـال بـخَدِّه ... شَبَّتْ فلَفَّعَ عـارضيـه دخانُها

وأنشدته للعماد الأصفهاني[1] :

ومعذر لعب الـدّلال بطـــرفه ... وبعطـفـه فكلاهمـا نشـوان
وتوافقت نار الصبـا فـي خـده ... مع مائـه فعـلا هنـاك دخـان

وأنشدته لعز الدين بن العجمي[2] :

لهيب الخد حين بـدا لعينــي ... هـوى قلبي عليه كالفــراش
فأحرقه فصار عليـه خـــالا ... وها أثر الدخان على الحواشـي

وأنشدته لأبي تمام غالب بن رباح[3] :

يـا سالـب البدر الـمنير جمالـه ... ألْبَسْتني للحزن ثـوب سمائـه
أحرقـت قلبـي فارتـمى بشـرارة ... نزلت بخدك فانطفت في مائـه

وأنشدته أيضا :

يا حبيبا لـه الفـؤاد مـحـل ... كيف تجفـو وأنـت فـي سودائه
كَتَبَ الحسـن فـوق خـدك خـالا ... فامَّحَى الخال غيـر نقطـة خائـه

وأنشدته لابن عبد ربه القرطبي[4] :

ياذا الـذي خـط العـذار بخـده ... خطين هاجـا لوعة وبلابـلا
ما كنـت أقطـع أن جفنـك صارم ... حتى حملت من العذار حمائـلا

---

1) محمد بن محمد ، المتوفى سنة 1201/597.
2) محمد بن أحمد المتوفى سنة 1274/673.
3) غالب بن عبد القدوس الرياحي المتوفى سنة 180/796.
4) أحمد بن محمد الشاعر الأديب صاحب العقد الفريد المتوفى سنة 328/940.

وأنشدته لابن حصن الإشبيلي :

غزال كحيل له ربقة ... يُخالطُها المسكُ والقرقفُ
كأن العذار على خده ... نجادٌ ومُقْلَتَهُ مُرهفُ

وأنشدته لعز الدين ابن العجمي الحلبي :

قد كان من قبل ذا نهارا ... فزيد ليلا من العذار
فأين منه وهل مفر ... لنا من الليل والنهار

وأنشدته لبعض المشارقة :

وأحزنني من فراق خد ... لمع نسرينه بورد
وعرقت نون عارضيه ... على عقيق بلازورد
يلعب بي والهوى مجد ... ورب هزل أتى بجد

وأنشدته للأمير حسام الدين بن بهرام الماجري الأربلي[1] :

لمَ لا أحنُّ إلى الحجاز صبابة ... ويفيض دمع العين بالهيمان
ورضابه الخمر العذيب وخده ... النضر الحما وعذاره العلمان
لم يعل ذاك الخد خال أسود ... إلا لنكث شقائق النعمان

وأنشدته لأبي الحسن بن رستم المعروف بابن الساعاتي[2] :

ومشوب الوداد ساغ هواه ... في خفي الأحشاء أي مساغ
بَلَّغَتْ وحيَه الذوائبُ قلبي ... ما على المرسلين غير البلاغ
قمر نور وجهه يكشف الشمس إذا حل عقدة الأصداغ

---

1) أسعد بن إبراهيم المتوفى بعد سنة 632/1235.

2) علي بن محمد بن رستم المتوفى بالقاهرة سنة 604/1208.

وأنشدته لأبي الحسن العاصي :

وشادن دينـه التشيـع بـالكـرخ يضـاهـي الغصـون بالـميـل
واصلنـي ثـم صـد عـن ملل فليتـه قبـل ذلك لـم يصـل
تـصبِّـح ألحـاظـه إذا قتلـت بسحـرهـا العاشقيـن بالعلل

وأنشدته لأبي الفضل الراضي ابن منصور الفارقي :

مـولاي يـا بـدر كـل داجـيـة خذ بيدي قد وقفت في اللجج
حسنك مـا تنقضـي عجائـبـه كالبحر حدث عنه بلا حـرج
بحق من خَطَّ عارضيـك ومـن سلط سلطانها على الـمهـج
مُدَّ يديك الكريمتيـن معـي ثم ادع لي من هـواك بالفـرج

فقام وقبل رأسي وقال لي : كيف يعارض من جال آفاق المغرب وهو ينفض الغبار مِن خوض أحشاء المشرق . فلما أطنب فيما به أثنى ، سلكت به في غيـر هذا المعنى ، وأقمت منها بين جداول كـالسيوف المرهفَة، وبُسُط نَبات كالبُرود المفوَّفَة ، وأيام مُعلّمات الذيول، عاطرات عـرفي الصبا والقبول ، نعمنا ببكَرها وآصالها وأمتعنا بتواليهـا واتصالها ، والسعدُ لنا خادم ، ومـا غَيْرُ السرور عَلَيْنا قادم . ولما هصرتُ من أنْسي بهنَّ غُصْناً ميّاداً ، وانتقَيْتُ بميْدانها للأنْس جياداً ، خرجت مودعا لذلك الأخ الفاضل ، وشاكرا لتلك الشيم والنحائل ، وسائر بين تلك الربى والخمائل .

انتهى نص أبي البقاء رحمه الله .

ثم دخلنا الجزائر يوم السبت ثامن ذي القعدة لليلة بقيت من غشت[1]. وهي عامرة كثيرة الأسواق بعيدتها ، كثيرة الجند حصينة ،

1) يوافق التاريخ الهجري يوم السبت 8 شتنبر 1590.

لها ثلاثة أبواب ، وفيها المسجد الجامع واسع ، إمامه مالكي المذهب ، وفيها ثلاث خطب :أحدها للترك ، إمامهم حنفي المذهب . ومرساها عامر بالسفن ، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر ، يقهرون النصارى في بلادهم . فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيبة وأكثر رعبا في قلوب العدو . فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقيا وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذُ أسْواقاً وأوْجَدُ سلْعَةً ومتاعاً ، حَتَّى أنَّهم يُسَمونها اصْطنبول الصغرى . وطلبة العلم بها لا بأس بهم ، إلا أن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا . والكتب فيها أوجد من غَيْرها من بلاد إفريقيا . وتوجد بها كتب الأندلس كثيرا . وفي هذه المدينة قبر الولي الصالح أبي زيد سيدي عبد الرحمن الثعالبي[1]، وقبر الولي الصالح أبي العباس سيدي أحمد بن عبد الله الجزيري[2]، وقبر الولي الصالح أبي النور ، كذا يقال له عند أهل البلد، وهو الذي قبره في رأس الجبل. وكل هؤلاء خارج باب الواد . وفيها غيرهم من الصالحين ، زرناهم وتبركنا بهم ، رحمهم الله ونفعنا بهم .

ولقد سافرت السفينتان اللتان جئنا فيهما راجعتين من الجزائر إلى اصطنبول بأموال كثيرة وجباية البلد وهدايا بأمثالها للسلطان ، والوزير والقبطان وغيرهم ، وأموال التجار وذخائر الجند ، وغير ذلك . وسافر فيها كثير المسلمين ، وقاضي البلد المعرج بماله ونسائه وأولاده ، والتجار ، والحجاج وغيرهم . فبعد أن انفصلوا عن البلد بليلة ، قام فيها العلوج ، مماليك رايسيهما مع من فيها من نصارى القذف ، ونصارى الهدية ، فقَتَلوا الرايسين ومن حاربهم من المسلمين . فرمى

1) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المتوفى سنة 875/1470.

2) المتوفى سنة 874/1469.

بعض المسلمين أنفسهم في البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق بعض . وذهبَ النصارَى بالسفينَتَين إلى بلادهم بما فيها من الأمْوال والنساء والصبيان ، ومن دخل أيديهم من رجال المسلمين واستسلم ولم يقاتل ولا رمى بنفسه . فذكر لنا بعض من له خبرة بأمور الباشا والي البلد أن الذي ذهب له في السفينتين ألف ألف مثقال . وذكر آخر أنه ثمانية عشر قنطارا ذهبا . سوى الجوهر والملف وسائر السلع والنصارى والفرش . فوقع مأتم عظيم في كل دار من ديار الجزائر ، حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبة في الأنفس والأموال ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ثم بعد أيام ورد الرايس أرنط مم ، وكان غائبا قرصانا في مراسي بلاد النصارى بثماني سفن ، وأخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينتين ، ذهبوا في مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية عشر ألف مثقال . فذكروا أنهم لما وصلوا بلاد النصارى اقتسموا ما ذهبوا به فأتاهم ألف مثقال لكل إنسان ، بعد أن رفعوا عشرين ألف مثقال صدقة للكنيسة . وذكروا لنا أنهم عزموا على هذا الغدر والفتك قبل وصولنا الجزائر ونحن معهم . فسلمنا الله تعالى والحمد لله وله الشكر. وكانَ السببُ في ذلك ، فيما ذُكر ، أنْ تَشاوَروا بَيْنَهم فقال ذو رأيهم : السفينتان الآن فارغتان ليس فيهما إلا الأنفس ، أخروهما حتى ترجعا من الجزائر موسوقة بالأموال والذخائر . فكان الأمر كذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة .وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزئر . وقال أبو البقاء خالد ابن أبي خالد رحمه تعالى : وَرَدْنا مَدينةَ الجزائر ، فرأيْتُ مُحَيّا صَبيحاً ، وتَرْتيباً مليحاً ، ومَسْجداً عَتيقاً ، وبناءً أنيقاً ، وأناساً سَلكوا إلى الحسْن والإحْسان طريقاً. منْ مدينة أقسمت بعلو هضابها ألا يفوز مبسم الثريا برشف رضابها . فلا

ترتقيها إلا الظنون ، وكأنها ضب ومن يطمع فيها نون . قد أحاط بها البحر إحاطة السوار بالزند . فألبس ذلك الجسم روح المجد ، وركب خلائق الدهر على ذلك النجد . فأقمنا بها نحكم في حزن الأنس وسهله، حكم الصبي على أهله ، حتى قرب أمد الرحيل ، وغلب واجبه على المستحيل ، فعزمنا على الخروج وسرت على بياض ذلك الساحل وخضرة تلك الدروج.

يا بياضاً أجْرى دموعي حتَّى عادَ منها سوادُ عَيْنِي بياضاً

انْتَهى.

قلت ولقد كانت إفريقيا في الزمان الأول والصدر المتقدم هي المغرب المعتبر، مدنها وقراها آهلة عامرة وعلماؤها كثيرة وافرة ، وملوكها ظاهرة وعساكرها متوافرة ، وجنودها متناصرة ، حتى عادت باديتها في ذلك العصر حاضرة ، فأصبحت في هذا الزمان خرابا غامرة، وضعيفة داثرة ، حتى طمع العدو الكافر فيها وملكوا كثيرا من سواحلها ومدنها ،كتونس وتلمسان وطرابلس وجربة والجزائر وغيرها . وخربوا بعضها كالمهدية وبجاية وغيرهما . قال الإمام الولي الصالح أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن علي بن سالم البكري ، بكر وائل ، الجبنياني[1] رضي الله عنه ونفعنا به : لقد أدركت ساحل إفريقيا وما منه قرية إلا وبها رجل من أهل العلم والقرآن ، ورجل صالح يزار . إلاّ أن الله سبحانه بفضله دافع عن المسلمين بها ، وأنقذها من أيدي النصارى خذلهم الله بعدما كادوا أن يستولوا على جميعها ، كما استولوا على سواحل الشام كلها ، وتغلبوا عليها. فأخذوا القدس

---

1) المتوفى في 19 محرم 29/369 يوليوز 979 . ينظر عنه : عبد الوهاب ابن منصور ، أعلام ، 1 : 34.

ونابلس وطرابلس الشام وصيدا وبيروت وعكا وصفد وأنطاكيا وعجلون والغَوْرَ وبلادَ غَزَّةَ وعَسْقلان وكرك والشويك وبانياس وجميعَ ما ولي ذلك إلى بلاد اياس وسيس وبلاد أمد والرها وبلاد اشتر . وقتلوا خَلقاً كثيراً من المسْلمين لا يعلمُ عَدَدَهم إلاَ اللّه ، وسَبَوْا منْ ذراريهم ونسائهم وولدانهم مالا يدخل تحت حصر ، وكادوا يتغلبون على دمشق ، ونزلوا وحصروا دمياط ، يريدون مصر . وذلك كله في أيام بني عبيد القائمين بإفريقيا . فإن إفريقيا فتحت في خلافة عثمان رضي الله عنه وتوالت عليها أمراء الخلفاء وبني أمية وبني العباس إلى زمن بني الأغلب ، مبدؤهم من جمادى الأخيرة سنة أربع وثمانين ومائة . أولهم إبراهيم بن الأغلب التميمي . فأظهروا التمسك بدعوة بني العباس، والخليفة يومئذ هارون الرشيد ، وهم مستبدون بأنفسهم. وآخرهم زيادة الله ، بزمن أبي عبد الله الحسين بن أحمد الشيعي القائم بدعوة بني عبيد في جمادى الأخيرة سنة ستة وتسعين ومائتين . وقصد الشيعي سجلماسة فقتل فيها اليسع بن مدرار وتملكها . ورجع إلى إفريقيا وبايع عبدَ الله ودعا له عَلى جَميع منابر إفريقيا. فَتَمَلَّكها بَنو عُبَيْد حينئذ وملك منهم مصر المعز، دخلها قائده جوهر سنة ثمانية وخمسين وثلاثمائة ، فبنى له القاهرة والجامع الأزهر، ثم قدمها المعز سنة اثنين وستين . وقطعت الخطبة فيها لبني العباس سنة تسع وخمسين، وذلك في خلافة المطيع العباسي . وملك العبيديون مصر إلى أن أتى الله بدولة المماليك ، فولى الخليفة الناصر العباسي في خلافته مولاه أبا المظفر صلاح الدين[1] يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاه الكردي الشام ومصر، فتولدت منه ولاية المماليك والموالي . وكان دخل مصر قبل ذلك سنة أربع وخمسين وخمسمائة مع عمه أسد الدين ، فأمَّر نور الدين

---

1) هو صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر المتوفى سنة 1193/589.

أبو القاسم محمد بن عماد الدين أتابك التركي ، فأعاد الخطبة فيها لبني العباس سنة سبع وستين وخمسمائة في أول خلافة المستضيء العباسي، بعد انقطاعها منه بمائتين وثمان سنين . وكان العاضد العبيدي هو الخليفة إذاك بمصر. وتوفي أول هذه السنة وانقطعت دولة العبيديين بمصر ، وعضدت بموته. واستولى صلاح الدين ابن يوسف المذكورُ عَلى قُصورهم ، وأخذَ جَميعَ ما فيها من الأمْوال والذخائر وأشياء بديعة يعسر وجودها في خزائن الملوك ، منها خزانة كتب كانت من عجائب الدنيا ، تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مصنف . منها ألف ومائتان وعشرون نسخة بتاريخ ابن جزي[1] والطبري[2] . فأنقذ الله بهم مصر ودمشق من العدو بعد أن أشرفوا على أخذهما وأنجى من فيهما من المسلمين بفضله . ثم فتح الله تعالى على يد هذا السلطان صلاح الدين المَقْدسَ ، بعد أن استولت الفرنج عليه إحدى وتسعين سنة . وفتح بلاد الشام كلها واستنقذها من يد الفرنج . ووجد في مدينتها خزانة كتب فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد. وكان هذا السلطان رجلا صالحا فتح الله على يديه الفتوحات العظيمة رحمه الله. وفي أيام بني عبيد ابتدأ الضعف بإفريقيا لما كانوا عليه من الرفض والبدع والمنكرات ، حتى حكم بعض الأئمة بكفرهم ، منهم الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني صنف في ذلك كتابا سماه **كشف الأسْرار ، وهَتْك الأسْتار** ، والشيْخُ شهابُ الدين أبو شامة صَنَّفَ كتابا سماه **كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكيد والمكر والكذب**[3]. وكان علماء إفريقيا معهم في محنة عظيمة كابن أبي زيد

1) إبن جزي ، شمس الدين بن محمد المتوفى سنة 944/333.

2) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 922/310.

3) ذكره له حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 2 : 1494 ولم يذكر تاريخ وفاته .

القَابسي والجبنْيَاني وأبي الحسَن اللخْمي وأبي عمْران الفاسي وابْن التبان وغَيْرهم ممَن كانَ في عَصْرهم رَحمَهُم الله . ثمّ لما انْقَضَتْ بَنو عبيد وضعف أمر القيروان وتخرب أكثرها ، صارت تونس قاعدة إفريقية، وكان المتغلب عليها والمتولي أمر إفريقيا قبائل من صنهاجة بدعوة لمتونة ، إلى أن افتتحها عبد المؤمن بن علي في شهر جمادى الأولَى سَنَةَ أربْع وَخمْسينَ وخمسمائة . فكانتْ في ولاية عبد المؤمن ، (ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب) ، فَلمَّا رَجَعَ من المهدية يُريدُ مُراكش ولّى على إفريقيا عبدَ الواحد بنَ أبي حَفْص الهنتاتي. وهو أولُ الحفْصيِّين وجَدُّهم، فملكَها هوَ وعَقبُه . وكانَ فَظاً غليظاً ، فأشارَ مشيخة من الموحدين على الناصر بتوليته إفريقيا ليغربوه ويبعدوه على مراكش ، فيتمكنوا مما يحبون . فأمره الناصر بالإقامة، فقال : بشرط أن أستعين على ولايتها بفلان وفلان ، يعني أولئك الذين أشاروا عليه به ، فأجابَهُ إلَى ذلك . فأقامُوا مَعَه . فلمَّا تمكنَ في المُلك وضعف أمر الموحدين بمراكش، قتل أولئك الأشياخ ونصب رؤوسهم على باب تونس ، مظهرا أنهم راموا غدره. فاستبد بأمر إفريقيا . فما زالت في ولايتهم إلى أن ضعفوا آخرا ، وتملكت الفرنج سائر جزر البحر، ومدوا أيديهم إلى سواحل إفريقيا . فملكوا منها عدة حصون[1] كما تقدم. وكانت لهم قوة في البحر فوصلوا بها إلى إفريقيا ، واستنقذوا سواحلها من النصارى ، وفكوا أسرها وما قدروا عليه من جزر البحر ، وأخذوا تونس من الحفصيين . ثم عادوا إليها تحت حكم النصارى وأخروا الترك ثم رجع إليها الترك فأخذوهم في غزوة حلق الوادي ، كما تقدم ، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة . فكان ذلك آخر الحفصيين .

---

1) وردت الجملة في جميع النسخ: "فملكوا منها عدة حصون القسطنطينية كما تقدم" وقد أسقطنا كلمة القسطنطينية التي لا محل لها في السياق .

والعثمانيون من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين ، وجعلهم حصنا وسورا للإسلام وان كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجُل الفاجر . وإنْ كانوا إنما حُمِّلوا الإمارةَ وقُلِّدُوا الأمْرَ في الحقيقة نيابةً وأمانةً يُؤَدُّونَها إلى مَنْ هُوَ أحقُّ بها وأهْلُها ، وهُمْ مَوالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب ، الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة . وكل مسلم لا يقول عكس هذا ولا خلافه . والشاهد لهذا أنهم [من الأرومة السَّنِيَّة ، والدَّوْحَة الحسَنِيَّة ، وَلَدَتْهُمُ الرسالةُ فما أشرَفَ هذه الولادَة ، وشَهِدَتْ لجدِّهم أكبَر السِّبْطين بالسيادَة، وناهيكَ مَن نصبَ هذه الشهادة، أيسامى بشرف الأبوة من ختمت بجده حلية الرسالة والنبوة وظهرت عليه بركة السلالة الطاهرة والبنوة أو يدانى بمفخر من له هذا الشرف الأطهر ، أو يفاخر في فحص من ينتهي إلى السبط الأكبر بخ بخ . هذا المجد الأطهر، والسؤدد الأتلد الأنور، كل خطة عند هذا الشرَف مُنْحَطَة، وكلُّ مَرتَبة مَعَ هذا الحسَب مُثلبة](1)، وقدْ أجْمَعَ المسلمون على أن الإمامة لا تنعقد إلا لمن هو من صحيح قريش. لقوله صلى الله عليه وسلم : الخلافة في قريش . وقوله عليه السلام : قريش صلاحُ الناس وَلا يَصْلُحُ الناسُ إلا بهم ، كما أنَّ الطعامَ لا يَصلحُ إلا بالملح . وقوله عليه السلام : لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم إنسان . وقال بعض العلماء يعني أميرا أو وزيرا. وقوله عليه السلام : لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه . وكون ملوك المغرب أولى بهم من غيرهم من قريش صحيح، لقوله صلى الله عليه وسلم ، فيما أخرجه القرطبي في **التذكرة** من حديث ابن مسعود وغيره من الصحابة : أن المهدي يخرج في آخر الزمان من المغرب الأقصى يمشي

---

1) ما بين المعقوفين كلام للبلوي نقله الدرعي هنا ببعض تصرف، تنظر ص 117 أعلاه.

النصر بين يديه أربعين ميلا ، راياته بيض وصفر فيها رقوم ، فيها اسم الله الأعظم مكتوب ، فلا تنهزم راياته ، وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر ، بموضع يقال له ماسة من جبل المغرب ، فيعقد هذه الرايات مع قوم قد أخذتهم ميثاق النصر والظفر ،أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون ، وفيه يأتي الناس من كل جانب ومكان ، فيبايعونه يومئذ بمكة وهو بين الركن والمقام . وهو كاره لهذه المبايعة الثانيَة بَعْدَ البَيْعَة الأولَى التي بايعَهُ النَاسُ بالمغْرب . الحديث بطوله . وذكر فيه خروجه بمن معه إلى الشام لقتال عدوه ابن محمد السفياني من ذرية معاوية بن أبي سفيان حديثا طويلا ذكر فيه فتح الأندلس، ثم تغلب الكفار عليها، وتكثر الفتن والغلاء والجوع بالمغرب. فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من أهل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المهدي القائم في آخر الزمان وهو أول أشراط الساعة ، من عترتي من ولد فاطمة . وقوله في المهدي أنه أجلى الجبهة أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما ، وقوله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث الله تعالى رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا ، كما ملئت جورا وظلما ، وقوله لو لم يبق من الدهر إلا يوم لطَوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلا من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا . وأخرج ابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّم : لوْ لمْ يَبْقَ من الدنيا إلا يَوْمٌ لطوّله الله عز وجل حتى يملك رجل من أهل بيتي يصل الديلم والقسطنطينية . ومن حديث حذيفة أن المهدي يملك أنطاكية يفتحها بالتكبير ويبني فيها المساجد ثم يسير إلى روما والقسطنطينية وكنيسة الذهب فيستفتحها كلها ويقتل أربعمائة ألف مقاتل . ويفتضون بها سبعين ألف بكر ويفتتحون المدائن

والحصون، ويأخذون الأموال ويقتلون الرجال، ويسبون النساء والأطفال، ويستفتح كنيسة الذهب ويأخذ منها الأموال التي رفعها قيصر من بيت المقدس على سبعين ألف عجلة فيجعلها في الكنيسة. ويكون المسلمون ظاهرين على أهل الشرك والحمد لله. وقد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، أن المهدي من أهل بيته وأنه يملأ الأرض عدلا، وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب له بأرض فلسطين. وأنه يؤم هذه الأمة، وعيسى صلوات الله عَلَيْه يُصَلِّي خَلْفَه. انتهى

وها هم ساداتنا الشرفاء، خلّد الله ملكهم، بعدما حصنوا أرض المغرب ونفوا عنه رجس الكفر، امتثلوا السنة في الابتداء بميامن الأرض، فيدخلون بلاد السودان ويملكونها ويستولون على سائر أقاليم الأرض ويملكونها منهم، بنص حديث المهدي الذي يملك الأرض ويطهرها من ظلم جبابرة الأعاجم وجورها، يرضى به ساكن السماء وساكن الأرض ويؤم نبيّ الله عيسى عليه السلام في النافلة والفرض. فلا تدع إذ ذاك السماء من مطرها شيئا إلا صبته، ولا الأرض من نباتها شيئا إلا أخرجته، حتى يتمنى الأحياء حياة الأموات من الخير والخصب وشمول الأمن والعافية والحمد لله، وقد طال بنا الكلام وخرجنا عن القَصْد، لكنْ لا يَخلو منْ فائدة، ومَصْلَحةٍ عائدة.

فلنقبض العنان ولنرجع لحديث أبي البنان فنقول:

ثمَّ سافَرْنا من الجزائر لِيْلَةَ الاثنَين سابعةَ خلت من مُحَرم عام تسْعَة وتسعين وتسعمائة لأربع ليال بقين من أكتوبر[1]، فحملتنا الريح إلى مَرْسَى هُنَين، فَدَخَلْنا سالمين.

---

1) يوافق يوم 7 محرم 999 يوم 5 نونبر 1590.

قال أبو البقاء خالد ابن أبي خالد رحمه الله تعالى : هنين بليدة نَضيرة ، لا كبيرةٌ ولا صَغيرة، جَميلةُ المنظر، مُتَوسِّطةٌ بينَ الصغَر والكبَر، موضوعة أسفل جبلين بين بحر وشجر. يخفضها ارتفاع قلعة ودار صنعة وأسواق موفورة ومساجد معمورة ، ولقربها من الأندلس هي مذكورة . لقيت بها الخطيب الماهر ، أبا عبد الله بن جابر فجبر الوحشة بالإيناس وأنشدني لبعض الناس :

أبشر بخير عاجل	تنسى به ما قد مضى
فرب أمر مسخط	لك في عواقبه رضى

ثم سافرنا منه وذرفت علينا الريح وحملتنا . فما أرسينا إلا في مرسى تيطاوان قاع مزرير[1] عشية يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من الشهر المذكور. فحاولنا التعلق بالبر ، فما قدرنا من شدة الريح وردتنا على أعقابنا إلى واد لو . فبتنا به ليلتنا والموج يرفع السفينة ويحطها حتى أصبح الصباح ، ونادى المؤذن حي على الفلاح . أقبلنا إلى المرسى قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين . ونزلنا إلى البَرِّ لا نَلْوي على جَريح ، ولانصبرُ رَيْثما يَسكنُ البحرُ من ماء وريح . وقد طالت بنا معاناة البحار ، ومكابدة الأسفار . فآليت أن لا أُودعَ الريحَ تحية ، ولا يُورثَني هُبوبُها أريحيَّة . فكمْ أثارتْ من الموج صنْفا ، ومَشَتْ عَلَيْه خبَباً وعُنْفاً ، حتَّى تُعيدَه كالكثبان ، وتُصَيِّرَ المركبَ فَوْقَه يَتلاعبُ كقَضيب البان ، وتُخْرجَه عنْ طريقه ، وتُنزلَ كلَّ واحد منْها على مركزه وفريقه. وتقص غصه بريقه ، حتى يغوص في أجباج ويحرم عليه بحر عجاج . وكمْ طارتْ بنا بينَ قوادم السَّفينَةِ وخوافيها ، ونَحْنُ

---

1) كلمة يصعب قراءتها ويرجح أن تكون قاع مرتين ، أو واد مرتيل [هامش ك ، ص : 82] .

نلاحظ المنايا حينا وحينا نكاد نوافيها . وقد تبدلنا من ظل المنازل والمقاصر ، بقفر بحر طامي اللجج زاخر، وعوضنا من صهوات الخيل بأمواج اللجج والليل . ومن عجائب هذا الإنسان أنه يخاطر بنفسه وماله ، ويطرح عودا على ظهر هذا الخلق العظيم، الذي هو أعظم آية في الكون تدل على وحدانية الله سبحانه، وهو البحر . ويركب عليه ويسافر فيه في جوف مياه متراكمة وأمواج متراكبة وقد انقطع عنه كل رجاء إلا في الله تعالى . كما قالَ عزَّ وجلَّ ﴿إذا مَسَّكُمُ الضرُّ في البَحْرْ ضَلَّ مَنْ تَدَّعونَ إلا إيّاه﴾(1) ويَهْتَدي إلى قَصْده منْ بَلَد إلى بَلَد في فَيافي منْ ماء ، منْ غَيْر عَلَمٍ يُنْصَب ، ولا أمارة تَظهَر. في ظلمة الليْل تَرَى سَفينَتين تَتعاقَبان إحْداهُما ذاهبةٌ إلى المشْرق والأخْرَى إلى المغرب ، بريح شرقية أو غربية، بحيث لا يجد أهل كل سفينة أن يخاطبوا الآخرين ، ولا أن يسألوهم إلا بقدر كلمة واحدة ، وتباعد بينهما الريح . سبحان الذي ألهمه بهذه الأمور وأرشده إليها وحمله : ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾(2) ﴿وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾(3) . ما أعظم قدرة اللّه تعالى وماأرحمه بعباده.

ولجام السفينة التي ترد به يمينا وشمالا ويستقيم بها سيرها وتعتدل هو من عود في مؤخرها. وتعرف الوجهة التي نقصدها بشيء يقولون له الحك(4)، على هيئة بيت الإبرة . وشيء آخر مصور فيه صورة البحر في رق مكتوب على جانبي البحر جميع البلاد ، وفي وسطه الجزر يعرف بذلك أنواع الريح ، وما قطعت السفينة من مسافة في البحر وما بقي بتقدير الأميال يسمونه القمباص(5) .

1) قرءان كريم ، الإسراء ، 67 .

2) قرءان كريم ، يونس ، 22 .

3) قرءان كريم ، إبراهيم ، 32 .

4) البوصلة .

5) Compas .

ومما كتبتُ أباسطُ به أصحابَنا وأمازحُهم به أنا كنّا في بلادنا درعة ، لا نعبأ بالريح ولا نلقي لها بالاً هبت أو سكنت ، إلا في زمن سقوط التمار من النخيل . أما نحن في البحر إذا هبت فكأنما أرسلت لقبض أرواحنا. ومما يحكى في بلادنا أن رجلا ممن امتحن في البحر وابتلي ببلائه حلف ألا يسكن إلا في بلد لا يعرفون البحر ولا آلاته . فرفع مقدافا وجعل يسير به من بلد إلى بلد ، ويعرفه الناس ، إلى أن أتى به درعة ، فقال لأهلها : ما هذا ؟ فقالوا : هذا آلة يدخل بها الخبز في الفرن ، ويستخرج بها ، فسكن هناك .

ثم إنا نزلنا من السفينة وأخرجنا أمتعتنا منها ودخلنا حصن تطوان ونحن في غاية الفرح والسرور بالسلامة من آفات البحر وخطره وعطبه . فللّه الحمد وله الشكر ، لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه . فقطعنا والحمد للّه مهول تلك البحار وسلمنا سبحانه بفضله مما ارتكبناه من الأخطار التي داخلها مفقود وخارجها مولود. خلق عظيم يَركبُه خَلقٌ ضَعيف ، دودٌ علَى عُود. وكانتْ مسافةُ ما قطعْناه من البحر ثلاثة آلاف ميل ومائتي ميل . سبعمائة في بر الترك من قسطنطينية إلى مدن وهو الربع . ومنه إلى طرابلس أو اقليبية عرض البحر مثله ، ومن اقليبية إلى الجزائر مثله ، ومنها إلى تطوان مثله . وبين طرابلس واقليبية نحو أربعمائة ميل .

فأقمنا بتيطاوان ننتظر أمر أمير المؤمنين أيده اللّه ، يرد علينا من مراكش . وزرنا الولي الصالح الشريف السيد عبد السلام بن مشيش شيخ أبي الحسن الشاذلي رحمهما اللّه ورضي عنهما . وقبره في قنة جبل العلم ، وهو جبل شاهق عال أشرفنا منه على بلاد الهبط كلها ، وعلى ساحل الأندلس ورماله وعلى مدينة قادس وجبل الفتح، وهو جبل طارق ، وهو مملوك موسى بن نصير الذي بعثه من القيروان فقطع البحر

إلى الأندلس ونزل في هذا الجبل متحصنا فيه حتى فتح الأندلس فتسمى به . والناس اليوم يسمونه جبل طارق ويرخمونه ولا يعرفون معناه . ثم قدم مولاه موسى بن نصير بعد فتح البلاد ، فنزل هنالك بجَبَل مُشْرف علَى تطوان وعلَى سَبْتَة ، فسُمِّيَ إلى الآن جَبَل مُوسى وجَبَلُ الفَتْح، يَظهرُ حتَّى في مَرسى تيطاوان . وهوَ جبلان توأمان. ويشرف جبل سيدي عبد السلام المذكور على مدينة طنجة ومدينة سبتة، أعادهما الله دار إسلام ، ويظهر فيه بحر طنجة وهو حلق صغير ينفذ منه البحر إلى البحر المحيط ، لكن هو أوسع من بغاز قسطنطينية الذي بني عليه الحصنان اللذان هما باب القسطنطينية كما قدمنا . ويظهر أيضا على هذا الجبل جبل آخر في شرق جبل الفتح ، ذكر لنا أن بجانبه مالقة ، أعاد الله تلك البلاد للإسلام ، وفك أسرها بفضله . ثم ورد علينا أمر أمير المؤمنين بالقدوم على حضرته العلية، فرحلنا من تيطاوان غرة صفر من العام المذكور(1). فوردنا على حاضرة مراكش حرسها الله في ربيع النبوي يوم عاشره(2) واستقبلنا أسعد بشائره . ودخلنا على مولانا السلطان العادل الهمام الباسل ملك الإسلام والمسلمين وناصر الدنيا والدين أبي العباس المنصور مولانا أحْمَد ابن السُّلطان الفاضل ، الغَمام الهاطل ، أمير المؤمنين ، نُخْبَة الملوك والسلاطين، أبي عبد الله مولانا محمد ابن السلطان العابد المرابط المجاهد الشريف، أمير المؤمنين ، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي عبد الله مولانا محمد ، أيدهم الله تعالى وخلد ملكهم، بحضرته المنصورة ومصدر أياديه المشكورة ، وسر بسلامتنا وورودنا غاية نصره الله ، وأشرق وجهه وتهلل وأمر بإنزالنا ومن معنا من أرسال الترك

---

1) 1 صفر 999 /29 نونبر 1590 .

2) الثلاثاء 10 ربيع الثاني 999/5 يبراير 1591.

وبالغ في الإكرام أيده الله وأجزل . وأقمنا عنده بدار الإمارة ريثما أدينا له الهدية وجواب السفارة . وقد بسط علينا من النعمة ما تعجز عن استيفائه العبارة مما يغذينا به من أنواع الأطعمة ويعشينا بغرائب الطبخ المحكمة الطيبة ، وطيافير[1] الفواكه المختلفة وأرهاط التحف المفترقة في حضرته المؤتلفة . ووردنا عنده أعذب مورد بالحضور في موسم المولد، الذي قام به لجده النبي صلى الله عليه وسلم واستوفاه ، وأخلص لله النية في تعظيمه والإنفاق فيه ، بما عجز عنه سواه . وإنما لكل امرئ ما نواه . استدعى الناس يومئذ لإيوانه السعيد الذي هو أجل بقعة ، المشرقُ بنور مُحَيَّاهُ الجميل الطلْعَة . واسْتَدْخَلَنا لقَصْره المبارَك الرحيب الفناء، البديع الزخرف الرفيع البناء ، المحتوي على قباب متقابلة عالية بديعة الحسن متناهية ، قد مهدت فيه فرش ألوان الحرير، ونُضِّدَتْ فيه المراتبُ التي لمْ يُنَضَّدْ مثلُها في بَيْت ، وصُفِّفَتْ فَوْقَها النمارق التي لم يصفف نظيرها في مراتب الخورنق والسدير ، وتدلت الأستار والكلل والحجال المخوضة بالذهب والحلل على باب كل قبة وحناية كل سرير. ودار على الحيطان حيطيات الحرير المستغربة الصناعات ، المختلفة الأشكال والاختراعات الظريفة الإعمال ، العجيبة التصانيف والاشتغال. كأنما أفرعت ألوانُها من أزهار الخمائل بالصناعات الجلائل، التي ما رُئِيَتْ قَطُّ في عَهْد الأوائل ، والقبابُ مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزع ، مطلية الرؤوس بالذهب الذائب ، مفروش جلها بالمرمر الأبيض البديع الصنعة الملصق إلصاقا محكما بالسواد داخلها ، مصنوع بنقوش غالبها مذهبة فائقة مُعْجِبَة ، صناعةٌ يكلُّ فيها الطرْف وَيقْصَرُ عنْها الوصْف . يتخلل ذلك ماء عذب سلسبيل، ليس في المدينة مثله ، يفور في القباب

---

1) جمع مفرده طيفور ، آنية خزفية .

في خصص ويجري في جداول في القصر . فدخل الناس على مقاماتهم في الرتبة وطبقاتهم في النسبة ومنازلهم من القربة . وأخذ كل واحد موضعه من القبة ، من شرفاء وقضاة وصلحاء ووزراء وقواد وكتاب وفقهاء وأضياف وأجناد . وخُيِّلَ لكل منهم في ذلك المقام الكريم أنه في جنان النعيم . والسلطان نصره الله جالس برتبته العلية في مرتبته العرفية في فاخر ملابسه وثيابه السامية السنية ، تكتنفه الهيبة ويعمه الوقار وترمقه بعين التعظيم والإكبار بصائر القلوب وألحاظ الأبصار . ويعجب كل ناظر حسنه الناضر ، ويستملحه حين يستلمحه كل باد وحاضر. وأجلس أمامه بذلك المجلس كل من عادته يقعد هناك ويجلس. وقامت الخدام والوصفان والعلوج على ساق فوق رأسه بل رؤوس من جمع هناك الالتصاق والاتساق ، وعليهم من أنواع الأقبية والمناطق المشدودة عليْهم والحزم المحلاة بالذهَب والفضَّة ما تدهشُ في حسنه العيون ، وتُسْتَقَلُّ في قيمة الواحدة منها المئون والمئون.

فلما استوفى الناس بالدخول من كل معروف ومجهول ، وكثرت على المواضع المغالبة والغلبة ، وامتلأت بالازدحام الساحة والعتبة ، واجتمع الأجناد والطلبة ، وسكنت بعد حين الجلبة ، وركزت ضخام الشمع الملوّن المزوّق المزيّن . وامتلأت القبة والساحة بأخلاط من الناس ، وأصناف من القبائل على أجناس عجّل بالإطعام من أنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية المعجبة . وتعاقبتها في أقرب أوان مطاعم الألوان ، فليس إلا الطيفور والخواص، من كل ما يروق نوعه ويحسن ويرق في الحلوق ولا يخشن ، وما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا يخاف آكله أذى ، ولا يعدو على الدماغ بامتلاء ولا على العين بقذى ، من أنواع الأطعمة المرغدة وأنواع الحلاوات والفواكه المتَعَدِّدَة . فأكلَ الناسُ وشربوا وأخَذوا من طرف

الحلوى والفاكهة لأولادهم ، ورفعوا الأيدي عن ذلك ولا مُنعوا . فلما اعتدلت الأمزجة وامتلأت البطون من تلك المطاعم المبهجة وفرغوا من الفطور وارتووا من عذب غيثه المطور ، لعقت الأصابع ، وقضى وطره المتبوع والتابع ، أتي بالطسوس والأباريق وصب الماء على أيدي الناس للغسل وأهرق، ونشفت الأيدي بالمناشف المبرزة ، ومناديل الكتان المطرزة . ونصبت في المجلس مباخر الجاوي والعنبر والعود ، وكملت السعود ، وأبرزت صحائف الذهب والفضة وأغصان من الرياحين الغضة فَرُشَّ بها من تلك الصحائف على كل فرد فرد ماء الزهر وماء الورد ، فتعطر القوم وتطيبوا وأكثروا من الدعاء لمولانا الخليفة أيده الله. وأنشدوا قصائد ومقطعات في مدح النبي المكرم، وفضل مولده المعظم ، ونظموا في ذلك الدرّ المنظوم وبالغوا في ذلك وأطنبوا ، وتخلصوا منه إلى ذكر أمير المؤمنين ، وتفننوا في مفاخره العلوية . واسْتَطربُوا بألْسنَة فصاح ونَغَمات ملاح ، وطريق حَسَنَة ، وفنون من الأوزان المستحسنة . فأصغت الآذان عند ذلك لحسن الاستماع إلى محاسن السماع ، فغنوا وأطربوا بألحانهم البديعة وأغربوا ، وأتوا من الأمداح النبوية والقصائد المولدية بما هز[1] الشيخ الماهد وحرك من السكون الجامد ، وأشعل في القلوب وجد الشوق الخامد. واستوجبوا به المدح عند كل من حضر، وحكم لهم بالإجادة حاكم الإنصاف حين أمعن النظر، وأزالوا بذلك الأنس عن النفوس المستوحشة العنى ، وبلغت القلوب من ذلك المحبوب غاية المنى ، ووجب لهم على ذلك الغنى . فأمطر عليهم أمير المؤمنين من سحب جوده ، وحاضر خيره وموجوده ،

1) الكلمة قبل "الشيخ الماهد" صعبة القراءة حيث وردت في م 1 وم 2 بشكل هو ، واعتبرها دي كاستر في م 3 بياضا ترك له نحو السطر وسار على منواله م 4 ، وفسر دي كاستري ذلك البياض بأنه محل فارغ تركه الناسخ ليضيف فيه إسم الشاعر [هامش ك ، ص : 91]

ماغم الغمام ، وأوجب عليهم الشكر على الدوام . ثم ختم المجلس بالدعاء والابتهال ، والتضرع في السؤال إلى الله سبحانه ذي الجلال ، لمولانا الخليفة بدوام العز ، وبقاء الأمر المعز وتأييد النصر ، وحفظ ما وهب من الستر ، وكمال السعد ، وتخليد الملك والمجد . وقبول صالح أعْماله في قيامه بهذا الموْسم بغاية احْتفاله ، وبُلوغه كاملَ آماله ، وفي صلاح دينه ودنياه أدام الله سعادة أيامه ، ولا زالت أنجم المسرات طالعة عليه في ساعة شهوره وأعوامه ، وزاده نعمة لإنعامه وحُرمةً لاحْترامه ، وكرامةً لإكرامه. وَلازالَ في خَفْض عَيْش ورفْعَة قَدْر ، وانْفساح عُمُر وانْشراح صَدْر ، وإشراق شمس وكمال بَدْر . مَحفوظاً من طروق الحوادث ، محروما من جميع الخطوب والكوارث ، بجاه من صنع كل ما وصف محبة فيه واعتناء بمولده الشريف ، الذي يقوم به ويوفيه . جعل اللهُ ذلك في صحائف حسناته وجازاه عليه بالنعيم الدائم في الدنيا وفي جناته . واللهُ تعالَى بفَضْله يَتَقَبَّل ، ويَسْتَجيبُ لكل من دعا له بذلك وتوسل.

ثم قام الناس وانفصلوا وخرجوا من حيث دخلوا ، وحمل كل واحد ما حصل له من أنواع الصلات ، كأنهم أخرجوا من روضات الجنان . وانصرفنا من خيره للنعم الدائرة علينا من يده ، والرزق الذي اتصل علينا من بركته كل يوم وتوالى، هَكذا وإلا فَلا .

ولمّا جاء بعد يوم المولود اليوم السابع فجر خيره الينابيع ، وأجرى بيضَ بَحْر جوده الزواخر ، وأمطرَ غيمُه المتتابع ، وأفاضَ فيه نعمتَه وتَطوّل ، بما هوَ أبدعُ من اليَوْم الأوّل وأرسلَ فيه مكارمَه كالوبل ، وضاعف فيه ماكان في اليوم الذي قبل ، من أنواع المطاعم الملونة والحلاوات التي هي من مصفّى الرزق مكونة ، والمآثر التي تبقى له في صحف المجد مدونة ، وتبخير المجلس بالعود الرطب ، وتطييبه

بالأخلاط المجموعة من أنواع الطيب ، ورش أهله بماء الورد والزهر ، الذي لم يتطيب أحد بمثلهما في هذا الدهر. وهذه سيرة مولانا الخليفة أيده الله أيضا في مواسم الأعياد وفي رمضان شهر الصيام عند ختم **صحيح** البخاري .

وإن أنس لا أنسى وقد حضرت في عيد الفطر وخرج السلطان نصره الله إلى المصلى صبيحة ذلك العيد في جيشه الشهام ذي العدد القمقام ، يحمل منه جواده الكريم طود حلم وإسجاح ، وليث بسالة وكفاح ، وبحر جود وسماح ، وبدر دجنة تسربل ثوب صباح ، برأيه الرشيدِ وعَزْمِهِ المنصُور وسَيْفِهِ السَّفّاح :

كأن الله خيره فسوى خلائقه الحسان كما اشتهاها

ركب بين يديه صنوف من المماليك والعبيد ، وألوف من أبطال الجنود ، متناغين في فخارة الملابس ، محففين بقادات الفوارس ، في أعداد تكاثر الحصى، تضيق بهم الفجاج وتزخر في بحر الحديد منهم الأمواج ، على جرد مسومة ، قب مطهمة ، من كل أشهب بالصباح مجلد وأدهم بالظلام مسربل وأصفر كسي قميص ورس ، وأشقر خلع عليه رداء شمس ، وأشهل مزج ماؤه بناره ، وأبلق خلط ليله بنهاره .

خيل مسومة غر محجلة من اللواتي تفوت الوهم والنظرا
كأنّما هي في المضمار جافلة ريح الصبا قبلت من ريحه المطرا
كأنما يده البيضاء قد لمست جباهها ، فغدت آثارها غُرَرَاً

فرسانها ممسكة بالأعنة ، وقائمة في سروجها كالأسنة . قد امتطوا أعدل الميدان وتقلدوا من المشرفيات كل هندوان من الهند غَيْر وَانٍ ، وانتكبوا من محنيات القسي أهلة لاتفضي إلى المجان ، ولاتنثني رجوم سمائها من شياطين المراق بالإحراق . واستلموا من أيلب

الحسان والحجُب التي سَوَّغَها الإنْعام العامُّ والإحْسان ، ماشئتَ من ترس تروق عيونا ، وتفوق أنواعا وفنونا ، ودرق ينفرد الكمي بها كمينا . وتقيه الخوف مصينا ويقدم بها على مقارعة الأبطال واقتحام الأهوال فتسدي النصر مكينا ، وتدني من عقائل المعاقل من الفتح مبينا . وقد أشرق ذلك اليوم بإشراق غرته ، وتبلج صباحه بتبليج أسرته ولاح الصبحان فكان الفضل لنور جبينه وغسق طرته . فبهر كماله وتجملت خصاله ، ورزق من أعين الناس قبولا واستبانوا منه ذكاء وتهذيبا في شخص حسن الخلق والخلق ساجي الطرف ، لين العطف ، يقظ الحس ، تشهد محاله بأتمها من دهاء وفطنة ، وقد كان الناس قد انتشروا حفافي طريق السلطان ، مستبقين إلى لقائه يسبق راكبهم راجلَهُم إلى أن أقْبَلَ في كتائبه مُعَبَّأة ، يَروقُ مَنظرُها ، وهُمْ يَسْتَقْدمونَ إلى المركب الذي هو فيه فوجا بعد فوج ركبانا ورجالا ، وقد وكل طرفه بملاحظتهم . وسمعه بأسماعهم ، فقسم بين وجوههم من إمساك عنانه وطلاقة بشْره وجَميل وُدَّه ما مَلأهم مَسَرَّة ، وبهجَهم مَبرّة ، ولمْ يسأموا من مسايرة مركبه ، وتكرير معاينته ، وإعلان الدعاء له ، ونشر الثناء عليه ، إلى أن نزل منزله من المصلى . وذلك المنظر قد راق محضره واجتمع باديه وحضره وأبدع في الجمال مرآه ومنظره ، والزهر قد مُدَّتْ مُلاؤه ، والربيعُ قدْ بَدَتْ كبْرياؤه وخُيَلاؤه ، وجميعُ الناس قدْ جمعتهم آلاء الله ونعماؤه، وشهدت بصومهم إلى يومهم أرضه وسماؤه. فقضيت الصلاة والخطبة وحانت الوقفة للبيعة والوثبة . ثم ركب السلطان وضربت الطبول . فمادت الأرض لرعودها ، وقفلت الجنود فرجفت الجبال لحدورها وصعودها . وأقبل السلطان المؤيد ووجهه الصبيح والشمس قد أومضا بياضا ، وأفاضا من سناهما إفاضا . وأعلام الدولة قد حفوا بلوائه وتألقوا في سمائه ، كأنهم النجوم إشراقا ، والدّر انتظاما

وانتساقا . وقد اجتلوا من غرته السعيدة البدر في الكمال ، وعاينوا من هيبته ليثا مع الأشبال :

أرق من الماء المعين لسانه طبعا وأمضى من حسام وأنْجَدُ
له سطوة مكتنة في سكينة كما اكتن في الغمد الغرار المهند

ونهضَ والعيون إليه رامقة ، والقلوب له وامقة ، وعذبات الألوية عليه خافقة، وكل علم منها بيد علم. ومن يشابه أباه فما ظلم. وسار الرَّكب الميمون ، والنصر يتقدمه ، والأقدار تسعده والسعود تخدمه ، بعسكر تشرق الأرض الفضاء به كالليل أنجمه القضبان والأسل . لايمكن الأرض أن يحيط به ما يأخذ السهل من عرضيه منه والجبل . وجال بين يديه من أنجاد الأمجاد وحماة الكماة أسود على عقبان ، وجنود كأنهم الكثبان قد أخذوا أرجاء ذلك الفضاء وجوانبه وملؤوا مشارقه ومغاربه . وهم يَسمُون صفحات البسيطة بحوافر الخيل ، ويثيرونها كما قطع الليل، وأسنة تبدو كأنجم سماء ، والسيوف تلوح كأنها جداول ماء ، والقنى تخطر كأنها بدور خواطر ، وجياد يصم منها الصهيلُ كأنَّهُ رُعُودُ قواصف . وانْصَرَفْنا نحنُ وراءهم نَميسُ طرباً كالغصن المياد ، وانعطفنا راجعين متنزهين في صهوات الجياد ، فكان عيدا سعيدا مبديا في الجمال والإجمال معيدا . وسرنا ويمن الملك الأجل يهدينا ونوره يسعى بين أيدينا .

لِيَهْنَ أمير المؤمنين عيد إمامه ملك سعيد
فكل الدهر وهو حي باق ربيع كل يوم منه عيد

فَلا زالت دولةُ مَوْلانا أمير المؤمنين أيَّده اللهُ مُمتلئةً من أوْليائها ، المستظلين بظل أفيائها ، مجبية الأقطار مقضية الأوطار تتوالى عليها الأعْياد توالى العُهَّادِ عَلَى الروْض ، والوارد عَلَى الحَوْض . ولا زالَ

أمرُها المطاع وحدُّها الصاعد . وجدها الأقعس ، ورايتها الظاهرة ، وحزبها الغالب ، وأيّامها السعيدة ، ولياليها البيض ، وعشراؤها الأحرار ، وعنايتها الدول ، ونوالها السماح ، ولواؤها المنصور ، ومنارها الهادي، ورأيها الرشيد وغيّها الأمين ، وسطوها المأمون ، وجارها المعتصم ، ومولدها الواثق ، وخادمها الموفق . وهنأ الله مولانا عيدا هو عيده وموسما زانته سيماه وفطرا بكرمه كرمت فطرته ، ولقاء الروح والريحان عن قيامه بالتراويح . كما اختصه بأجور من فطر من الصائمين .

آمين ، آمين لا أعد واحدة حتى أضيف إليها ألف آمين

وما بَرحتُ أميسُ في جَديد خُلْعه ، وأتأنسُ بحُسْن تَرْعه ، وأتبهْنَسُ بَينَ مُرْتَفَع ذلك الجانب ومَرْبَعه ، إلى أنْ آنسَ منِّي الاشتياقَ والحنين إلى الوطن ، بسبب وفاة الوالدة والبنية ، ورق قلبه وأشفق لما أصبت فيهما من مصيبة المنية ، فأذن لي أيده الله في الوداع ، فتأهبت للسفر والدمع في انسكاب وأنشدت متفجعا لفراقه متوجعا :

وداعٌ كما وَدَّعْتُ فَصْلَ رَبيع بفَضِّ ضُلوعي أو بفَيْض دُموعي
لئنْ قيلَ في بَعْضٍ يُفارقُ بَعْضَه فإنيَّ قدْ فارقْتُ منْك جَميعي

فأوسعت ملء عيني حياء وأصبحت مكرما بين خباء وامتطيت صهوة طرف من عتاق الخيل رائع رائق قيد الأوابد مما أنجب الوجيه ولاحق . ومن ألطاف الله الخفية وعوارفه الإلهية أن قيض لي أولا من علم غيبه ووفور جوده وسيبه ، صديقا صادقا في المحبة ، موافقا على الصحبة ، صافي الصحبة ، حافظا في الحضور والغيبة ، رافقني في هذه الأخطار الصعبة ، فآنسني فيها وأزال عني أزمات الغربة ، وفرج عنِّي غَمرات الكُرْبَة :

خَيْرُ إخوانك المشارِكُ في المُـ ـرِّ وأيْنَ الشريكُ في المُرِّ أينَا
الذي إن حضرت سرك بالـ ـد وإن غبت كان أذنا وعينا

وهو الفقيه العالم اللبيب الكاتب الأديب أبو عبد الله سيدي محمد بن علي الفشتالي نفع الله بمودته ، حافظ مجيد وناقل سديد وعالم مفيد ، له طبع حل فيه الذكاء والنبل ، وقَلَّ لِوَبْل كرمه الطل والوبل ، إن واخاك رأيت الأنس قد رد ذاهبه وعادت مواهبه ووجدت الزمان قد لانت صعابه وبانت شهابه ، وأولاك ودادا خلصت سريرته ، وحمدت في شرعة الوفاء سيرته . فلا حمد إلا ما تصفحته له صفحات الماء والفلا ، ولا عهد إلا ما حفظه وإلا فلا . حسن الوفاء ، مرشح بخلائق تجري مع الماء الزلال إذا جرى . أديب العصر ونحويه وعروضيه وبيانيه وحكميه ومنطقيه وعدديه وفرضيه وأصوليه وحوليه . جمع أشتات هذه الفضائل ، وكان فيها صائلا ليس بضائل . وعلم اللغات وسائرها ، وفكَّ أشطارَ الأعاريض ودوائرَها ، إلى ما أوتيَ منْ علم التفْسير والحديث ، وسلاطة علَى المطالعة والمذاكرةِ في القَديم والحُديث . لم يزل يفصح في هذه المسالك عن الكمال ، ويستسقى من مناهلها العذبة السلسل الزلال ، إيثارا للرتب المنيفة ، واستطلاعا للمقامات الشريفة . فبلغ المنتهى ، وحصل ما اشتهى ، وأطل من الحضرة فوق السهى . فعد من أفضل كتاب الدولة الهاشمية الأعلام ، وأبرعهم في علمي البيان والكلام ، وأوجدهم للدر إذا خاض بحر العلوم بسوابح الأقلام ، وأثبتهم للسحر الحلال الذي هو عند غيره معدوم محال . على جودة وصحة نقل وضبط ولطافة تدبير وحسن سياسة في الأمر العسير. سافرت معه وركبنا البحر ، وأنا بالأمور غرٌّ غُمْرٌ. فصاحبني منه حفظه الله أخ شقيق، فرج به عني كل أزمة وضيق، وعاملني معاملة الكرام، واتصلت معه اتصال الألف باللام، والتأمنا التآمَ النفْس والأمَل،

وانْتَظمْنا انتظامَ القَولْ والعَمَل . نركبُ في مركب واحد وننزل في منزل واحد في مباسطة وطرب وأمل وافر لا يستأثر أحدنا بمقسوم ، ولا ينفرد عن الآخر بمكتوم ، ولا مختوم[1]. وهو في ذلك كله يؤنسني غاية الإيناس ، ويحمل عني ثقل المداراة وملاقاة الناس ، ويقول : ما عليك إلا الذكر والدعاء فلكل شيء ظرف ووعاء . فأحْذو حَذْوَه في جُمْلة ذلك وتَفْصيله ، واقْتفي سننَهُ في دقيق الأمْر وجليله ، والمرء على دينِ خليله . والأسفار تسفر عن أخلاق الرجال ، وتجول بالمرء في كل مجال .

النـاسُ كالنـاس إلا أنْ تُجَرِّبَهُـمْ وللبصيرةِ حُكمٌ ليْس للبَصَر
كالأيك مشتبهـات في منابتهـا وإنما يقع التفـضيل بالثمر

فما زلنا نرد من الموافقة والمؤانسة أعذب الموارد ، ونسحب أذيال المودة وننظم لآلى الفوائد ، إلى أن زفت النوى وأثارت الجوي، ففرقتنا بعدَ تأليف ، وأقْصدتنا بسَهْم مُخيف، فودَّعْتُه بمنزله بحاضرة مُرّاكش حرسَها اللهُ وَوَدّعني، واسْتولى على الفكر ، فشَغَلْتُ مُقلتي بالدموع وكبدي بالجَمْر، وصالت النوى لوجدان الأسَى وعُدم الصَّبْر:

ومَدَّت أكفا للوداع فصافحتْ وكادت عيون للفراق تسيـل
ولا بدَّ للعينَين منْ دَمْع لوْعَةٍ إذا ما خَليلٌ بانَ عنْهُ حَليـل

فشيعني حفظه الله وبالغ في الإكرام واعتذر وزود حتى لم يدر ، وسرت والجوانح ملتهبة ، والدموع منسحبة ، والشوق بقلوبنا لاعب ، وغراب البين ببعد الأحبة ناعب :

---

1) يستوحي الدرعي هنا كتابة البلوي عن الأخوة فيكاد ينقل عنه . قارن بما في الصفحة 57 أعلاه .

فلو جرى من العروض بسيط ومديد ووافر وطويل
ولم أك عارفا بهذا إلى أن قطع القلب بالفراق خليل

وكم سربلتني النوى أسقما ، وأطارت من عقلي لما . فلو أن ما بي منها بجفن ما ألفَ هجوعا أو بقلب لفاض نجيعا . ولكني خلقت جَلدا ، وعدت في الحوادث حجرا صلدا ، والأيام إذا جاءت بوصل لا تبرح حتى تُخْلِق بُرده ، وتعلقم شهده ، وتأتيه من أبوابها وتعضه بأنيابها . ثم ودعت من الأصحاب كل مشيع ، وأنشدتهم بلسان مودع :

أودِّعكم وأودعُكم بِقَلْبي وعونُ الله حَسْبُكم وحَسْبي
وأرعى حبكم مادمت حيا وأرجو فضلكم في رعي حبي

وأنشدتهم :

ليت شعري أنلتقى بعد هذا أم وداعا يكون هذا اللقاء
فاذكروني وزودوني دعاء خير زاد تزودوني الدعاء

وأنشدتهم :

لئن شتَّ الزمان لنا جسوما فقد جمع الوفاء لنا قلوبا
وإن أصبحت منتزحا بعيدا فقلبي لم يزل منكم قريبا

وأنشدتهم :

لئن تباعدت الأجساد وافترقت فالروح واحدة والسر يجمعنا

ثم ارتحلنا وسافرنا من مراكش أواخر جمادى الأولى عام تسعة وتسعين[1] نؤم بلادنا درعة حرسها الله .

كل المنازل والبلاد عزيزة عندي ولا كمنازلي وبلادي

---

1) أواخر مارس 1591.

فسرنا في تلك الجبال جبال درن نقاسي طلوع شواهقها وأجرافها ، ونكابد قطع ثناياها وأعرافها ، ونسلك فيها طريقا غير مستقيم ، وندخل في أمر عظيم ، وعذاب أليم . نصعد على التهائم ونغور في النجُود ، من كلِّ مَخْدع لايكونُ مَسْلكا الاّ للّصوص والذئاب والأسود ، وشعاب بالخوف مشعرة ، وجبال منحرفة في الجو وعرة ، تقطع الأسباب وتخلع الألباب ، وتذكر الصراط والميزان والحساب ، تطلع إلى النجوم ، وتهبط إلى التخوم ، وأظن الخاطي إياها عنى بقوله :

سلكتُ عقاباً في طريق كأنَّها ... صياصي ديوك أو أكفُّ عُقاب
وما ذاك إلا أن ذنبي أحاط بي ... فكان عقابي في سلوك عقاب

فبَقينا نكابدُ عظيمَ ذلك الأمْر ، ونرقَى القُننَ ، تُقربُنا من السماك، وتُدنينا من النسْر، حتَّى فَرغَ الجهدُ وبلغَ الحدّ . ونحنُ مع ذلك كله نعالجُ في الأمر الأشواق ، ونطارح ذوات الأطواق .

وأبرح ما يكون الشوق يوما ... إذا دنت الديار من الديار

حتى أشرفنا على بلاد درعة حرسها الله تعالى .

هي الدار لا أجفو بها عن ملالة ... لأمر لنا بين الجوانح مضمر
فجاد على أرجائها الغيث أُمَّها ... منازل جيران كرام ومعشر

فأنخنا بأعلى واديها في غضن ، وقد أشرفنا بحمد الله على ثنايا الوطن، وأطرب طائر الشجن ، وأذهبَ الصبحُ ما بذر السهر من الوجد ، فرمينا سهم العزم ، وأطرنا عن زنده شرر الحزم ، وأدخلنا على معتل التواني حرف الجزم ، وسرنا في ظل ظليل ، في جنات من نخيل، وهواء صحيح ونسيم عليل ، في حافتي النهر الملتوي كالأمس الذاهب

منظره بالسأم والأين ، من نهر بدرعة هبوب النسيم ويتراءى كأنه العذارى في الخد الوسيم.

أحنُّ إلى الوادي ومن فيه نازل ومن أجل من فيها تُحَبُّ المنازل
وأشتاق لمع البرق من نحو أرضكم ففي البرق عن تلك الثغور رسائل
وفي أنه لا ينقضي أواركم ويصبح نجد وهو بالحي آهل

وما برح أهلها يطيرون إلينا كل مطار ، وفي تلك الأودية والأنهار بين سارٍ بالليل وسائر بالنهار .

دروا أحباب قلبي وجيراني وأهل منى روحي إذا طربت والسمع والبصر
أعندكم أنَّني مِنْ بَعْد فرقتكم لا أستلذُّ بما يَهوى لهُ النظر
ترى أراكم ونفسي منه كم أيست والبين قد غاب والأحباب قد حضروا
ويجمع الله شملا طالما بخلت به الليالي ولم يسعف به القدر

وثار الناس إلينا وأطالوا التسليم علينا عامة وأعيانا ، مشاة وركباناً. وتفاوضَ في ذلك سرُّهم ونجواهم . فما زالتْ تلك دعواهم ، حتَّى دَخَلْنا بلدةَ تمگروتْ حَرَسَها اللهُ تعالى ضحوةَ يَوْم الأربعاء غرة جمادى الأخرى عام تسعة وتسعين وتسعمائة[1] .

منازل عز طال فيهن مفخر ومنظر حسن حار فيه التعجب

فاجتمع والحمد لله الشمل وانتظم ، وسرّ الأحباب والأهل بما اتصل والتأم .

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر

1) الاربعاء 27 أبريل 1591 .

فاستوطنّاها قرارا وأنشدت عند ذاك مخاطبا أهلا ودارا :

صب يحث مطاياه بذكركم فليس ينساكم إن حل أو سارا
لو يستطيع طوى الأيام نحوكم حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقربكم والقرب يلهب في أحشائه النارا

وأنشدت أيضا متمثلا :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألاّ تلاقيا

وأنشدت أيضا من بنات فكري :

ومفترقين بَعْدَ بَيْنٍ وغربة ويأس بفضل الله يجتمعان

وأنشدت :

وقد كان صرف الدهر فَرَّقَ بيننا فمن حسنات الدهر أن جُمِع الشملْ

فتلاقينا مع خواص الإخوة والأحبة وتآقينا، وبكينا حتى أبكينا، ووالينا الحمد لله والثناء وكم لله من نعمة علينا لا تحصى .

وأنشدتهم :

أحبابَنا ما صَحَا قَلْبي فاعْتَذرُ ولانسيتُكمُ يَوْماً فأذكرُ
لولا رجاءالتلاقي واجتماعي بكم لكان قلبي لعظْمِ الشوق ينفطر

وأنشدوني :

على خير أوقات الزمان آت على الطائر الميمون والبركات
قدمت فَقَرَّت بالقدوم عيوننا وقد كن أيام النوى قرحات

ولم نزل نسرح في روض من ذلك الاجتماع ، ونشرح ما وجدناه من البعد والانقطاع وقد كان غلب عليهم اليأس والقنوط من اجتماع

الشمل وانقطعت عنهم الأخبار وعميت الأنباء سوى الأكاذيب وأراجيف القَوْل .

قطعنا البحار الزاخـرات وراءنـــا فمن أين يدري الناس أين تَوَجَّهْنَا

فحلَّ منا الأنسُ حلولَ الحياةِ من الجسْم ، والإعراب من الاسْم ، واتقد سراجه في ليل ذلك التوهم ، وأومض برق التبسم في وجه ذلك التَّجَهُّم . ومضَى لنا من ذُهول الألباب ، ومُجاذبة أهداب الآداب ، يومٌ كانَ نسيمه من عنبر ، وتخال أن أديمه من جوهر .

ولـو باعـت الأيـام آخـر مثلـه بالعمر أجمع ، كنت أول مشتر

وقد قالوا أليس تعدل ساعة الفراق إلاّ ساعة الهناء والتلاق .

فلـولا البعد مـا حمـد التّدانـي ولولا البين مـا طـاب التلاقـي

وقـال الحجـاج بن يوسف : لولا سـرور اللقـاء ، وفـرح الإياب ، لعذبت الناس بالفراق والأسفار . فكانت هذه الغيبة المباركة خمسة وعشرين شهرا . لنا منها في البحر ومراسيه وبلاده عام وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وباقي المدة في بلاد المغرب ، فلله الحمد وله الشكر على السلامة والعافية لا أحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه .

كأن لم يكُ بَيْنٌ ولـم تـك فـرقـة إذا كان من بعد الفراق تلاقـي

وصرْنا كمَا قيل :

ألا قد هجرنا الهجر واتصل الوصل وبانت ليالي البين واجتمع الشمل

بـلادي نديمي والمدامة ريقـهـا ووجنتهـا روض وقبلتهـا النعل

ومما كنت أسلي به النفس ، عند اشتداد الكرب واليأس ، وأجعله هجيرها ، وأطلب به النجاة ، أبيات ركيكة سمح بها الخاطر الكليل

والقلب العليل ، على منهوك الرجز ، ابتدأتها من تيطاون لما أشرفنا على البحر وأتممتها بالقسطنطينية وهي هذه :

بسم الله الرحمان الرحيم
وصلى الله على سيّدنا محمد وآله

الحمد للموفق   لذكره ومنطق
صلى على الهادي الذي   به إلى العَرْش ارْتَقي
وآله وصحبه   ممن لقربه انتقي
يا رب ما عوَّدْتَني   سوى الجميل المطلق
كنت يتيما جاهلا   فَقْرٌ وضعفٌ موثقي
آويت مني مهملا   أغنيت فقري الضيق
علمتني العلم الذي   ينجي من الجهل الشقي
أخفيت لي كل القبيح   بالجميل المونق
كم نعمة وفضل منـ   ـكَ كمْ من موفق
من غير حول لي ولا   قوة من شئ تقي
حمدا وشكرا للذي   بفضله مطوقي
غاية شكري العجز عن   أقله فحقق
أنت كما أثنيت لا   أحصي ثناء مصدق
رب الذي أحسن لي   كل الأيادي السُّبَّق
أرجوه أن ينجيني   من كل ما مضيق
فعلمه بحالتي   حسبي فيما أتقي
فإنني وديعة[1]   أودعها العبد التقي

---

1) جاء في طرة م2 : "بل تركني وديعة لله وأنا ابن سبعة أشهر سنة 941 ." انتهى من خط مؤلفها رحمه الله ونفعنا به .

فـي حـرز رب عـالـم ... في العز عـال مرتقـي

وهـو السميـع والبصيـر ... وذو الغناء المطـلق

رحمـان قـادر قـوي ... حافظي من فيـلق

أدعـوك يـارب دعـا ... عبد ذليـل مطرق

موجها نـحوك وجـ ... ـهي فرجـائي حقق

غوثـا إلهـي إننـي ... ببـابكم تعلقـي

إن لـم تغثنـي إنـنـي ... أضـعـف مـن خدرنق

رب فسـلـم مهجتـي ... من شـر هـذا الأزرق

واحفظ عـبيـدك وكـن ... مُؤَمِّـنـي من مفـرق

واكـف الـذي أهمنـي ... من أمـري المـؤرق

رجـوت رب أن أرى ... وجْهتَـنـا للـمَشـرق

مسعـودة سليـمـة ... رجـاء قلب محرق

واجمع إلهي شمـل هـ ... ـذا النـازح المسحق

أمـا وإخـوانـا وأو ... لادا بهـذا المشفق

قرة عيـن منـهـم ... هبهـا لهـذا الشيـق

فـي غبطـة وبعـد لا ... تبليـه بالتفرق

إلى الـممات ثـمَّ فـي ... الجـنة جمعا نلتقـي

مع كل مـا مـن سـلـف ... بنـا قريبـا ملحق

لله سـادة لهـم ... ذكـرهـم مشـوقـي

صـاروا حديثـا بعدمـا ... هم في الوجود لـو بقي

يا ليت نفسي قبـلـت ... فيـهم فداءَ كي تقي

إذ لا فـلا أقـل أن ... أبـكي بدمـع مهرق

لا أسْـلُو عَنْـهُمُ إلـى أن ... أحْمَل فـوق الأعنق

أو سـادة أنـدبهـم ... من كـل طاهر نقي

من عـــــالم بظاهـر — مـع باطـن محقـق
مـن عامـل بـعلمـه — وخاشـــع موفق
مـن زاهـــد أو ورع — أو مخلـــص مصدق
مـن عابـد أو صالـح — أوْ مـنْ ولـيٍّ أو تَـقـي
مـن فـاضـل أخلاقـه — فاضـــلة التخلـق
أو مــن سخـي مالـه — فــي كل بر منفق
معـالـم الديـن هـدا — ة للمريـــد المتقي
مــن أنجم أو مـن بدو — ر بضيـــاء مشرق
من شمس سيد الـورى — الـهاشمي المصـدق
بالفعـل والحـال إلـى — الله دعـا والمنطـق
احتسبـوا أنـفسـهـم — في الله للحـي البقي
سـادوا بتقـوى اللـه لا — بالمــال عـز الأحمـق
خافـوا مـن المولـى فكـل — الخلـق منهـم يتـقي
من بعـد مـر الاجتهـا — د فازوا بالحـلـو النقي
قـد آثـروا الله فكـا — فاهـُمْ بعـزٍّ مـدنـق
سلطانهم حـق سـوا — هــم للعقاب الموبق
لهم شهـاب صائبـا — ت كل مـوذ مخنق
وكل ذي ديـن بهـم — فـي العجز فوق العائق
وظالـم أو فاسـق — ما لـم يتب ذاك الشقي
خوفا لهـيبته ثـم — فـي سجن ذا مطبق
كـل المساكيـن لديـ — ـهم في يسـار مُحـدق
إذ يؤثـرونهـم علـى — أنفسـهم فـي الضيـق
مـن حـظ دنيـا رفضـوا — كـل عجيـب مـونق
أمن وخيـر كلهـم — من غيـر شـر تتقـي

كانوا مصابيح ضيا ... ء في الظلام المطبق
كانوا غياثا فرجا ... في كل أمر ضيق
كانوا معاقل حصو ... ن في المهم المطرق
ما المزن إلا هم وما ... كالحائط المخندق
هم الرواسي والسكون ... عند كل مغلق
أيضا هم المزن الظليل ... العذب ماؤه النقي
ما المسك بل أنفاسهم ... أزكى لدى المستنشق
آثارهم من بعدهم ... أعطر طيب معبق
آه عليهم فقدهم ... في هم دهر مغرق
واغربتي من بعدهم ... غربة لون الأبلق
ما طاب شيء بعدهم ... من عيشي المنمق
لا أغفُ لولا طيفهم ... بطرفي المحملق
كانت حياتي معهم ... بكدَر لمْ تُطْرَق
إذ كان دهر خادمي ... خدمة غير معتق
من أجلهم أرجو من ... الله المساوي أن يقي
أغدُّو إلى الفردوس ... بالغفران والترنق
يا سائق الغيث اسقهم ... من رحمة الله استق
واغفر لهم ربِّ الخطا ... يا وامحها عنهم وق
وارحمهم رب واكلا ... هم بالرفيق ألحق
أنس به وحشتهم ... أنس محب مشفق
وارحم نوى غربتهم ... بفضلك المحقق
ثم تقبل حسنا ... تهم وسامح وارفق
عن سيئاتهم تجا ... وزْ واعْفُ عنْهم واعْتق
متع برؤيتك منهم ... كل صب شيق

نفسي احسبيهم واصبري ... لله حتى تلحقي

هذا النذير معلنا ... إنذاره بمفرق

أحل جسمي الفنا ... جيش البلا الممزق

وما تأهبت ولا ... كنت لعجز أتقي

آه على عمر مضى ... في الخير غير منفق

كفاك يا نفسي كفا ... من الغُرور الموبق

هل قوة ترجى على ... ضعف وشيب مخلق

ما يعقب الشيب سوى ... ضعف لموت يرتقي

يأتيك صبحا أو مسا ... أو في الكرى المستغرق

كأس الحمام فاحْذَرَنْ ... فجاءة المفرق

يا رب جد بعمل ... لكل ذنب ممحق

واشف غليلي بشرا ... ب رحمة مروق

هب لي وليا مورثا ... ترضَى به وَهْو التَّقي

وَجِّهْ إلى الخير عبيـ ... دك وتب ووفق

زوده بالتقوى وجد ... بستر عيب ملصق

واشرح لطاعتك صد ... ره بنور مشرق

واجعله جادا تابعا ... سَبيلَ كلِّ مُتَّقي

مجانبا في نهجه ... موجب ذنب ممحق

يسر له الخير وعا ... فه وصنه وارزق

وارحم إلهي عجزه ... وضعف هذا المملق

والطف به وفكه ... من عسره المطوق

واغفر له كل ذنو ... ب جسمه واللقلق

واجعله من خير الورى ... يا رب خير معتق

فباب إحسانك عن ... عبدك غير مغلق

فهـو لـــــه مـلازم   مـنْ غَـيْـر مـا مُعَـوِّق

آمين آمـين لمضـــــ   ـــطر بكــم معلـق

إنـي استجـرت بجـوا   ر الصادق المصـــدق

ثـم توسلـت بــــه   فـي فـك عبد مخنـق

صـل وسلـم ربـنـا   علـيـه ما خلق بقـي

وآلــه وكـل مـن   بربـه لـم يسـبق

من هجـرة ألـف سـوى   عامَيْـن وقـتَ مَنْطلـقي

انتهت والحمد لله وحده .

ومما قلته بتيطاوان ونحن ننتظر ورود السفينة على بساط المؤانسة مع الرفقاء وصاحب المنزل الذي نحن فيه ، وهو السيد أحمد بن محمد بن أحمد بن المفضل الأندلسي الغرناطي . وهو من أهل اليسار والسعة بها ، وهو المتولي قبض ما للسلطان مما يخرج من عند النصارى من سبتة ، وما يدخل إليها من التجارة والأساري وغير ذلك . وكان أكرم مثوانا وبسط علينا في الإقامة وما غير علينا شيئا مما أقامنا به أول يوم إلى آخر ثلاثة أشهر جزاه الله خيرا . ونحن مع ذلك في غاية الضيق من الوَحْشَة والغُرْبَة وطول الانْتظار ، مَعَ اسْتقْبال السَّفَر البعيد وأهوال البحر وخطره في قرب أوطارنا واستدبار ديارنا وما وجدنا إليها سبيلا .

وفي نظر الصادي إلى الماء حسرة   إذا كان ممنوعا سبيل الموارد

وقد عظم علينا الخوف وكاد أن يغلب علينا اليأس من الرجوع إلى بلادنا لولا فضل الله الواسع وكرمه العام .

قال الفقير إلى الله الكريم علـي　　نجل محمـد الدرعـيّ بالوطـن
سابع تسعين مع تسع مئين مضت　　بتيطاوان نزلنـا منـزل السكـن
يا رب كـاف أبـا العبـاس مالكه　　نجل المفضل بالخـيرات والمنن
وهب له صالح النسل السعيد على　　ما كان أسعدنا من فعله الحسن
والكاتب الفشتـالـي مرافقـي　　سيدي محمد وهو يدعى ابن أبي الحسن
ذاك الأديب الذي من حسن أخلاقه　　وطيب عشرته يسلو أخو شجن
ما ابن العميد وما عبد الحميد إذا　　أنشا الرسائل فاق كل ذي لسن
مـوجهيـن لقسطنطينيـة ولنـا　　حـرزُ السلامة في البُحور والسُفُن
من الإمام أبي العباس بحـر نـدا　　مبيد كل العَدا الخليفـة الحسـن
المالـك العـادل المنصـور همتـه　　جهاد أهل اعتقاد الكفر والوثن
يا ربنا هب له إذ كـان أولـى بـه　　ملك الملوك وملك الخلد في قـرن
يا مَن يطالعُ قَوْلي قلْ آمينَ وسَـلْ　　لنا السلامة ثم العـودَ للوَطَـن

وذيلت أيضا البيتين الأولين من قول بعضهم بالبيتين الأخيرين ، كتبت بهما للوالدة والأخت للأم وكتبت نجلنا مكان شيخنا وللأخت .

وما عليـك أن نقـول كلمـا　　هللت أو سبحـت يا اللهمـا
أردد علينـا نجلنـا مسلمـا　　فإننا مـن أجلـه لـن نعدمـا
يسـر لـه الخيـرات حيث يمـما　　سهّل لـه كـل قصـد يمَّمَـا
واجعل لـه حفظـا وسترا حيثـما　　وجهتـه مكرمـا محترمـا

وقلت أيضا مذيلا للخمسة الأشطار الأول للحريري بالثلاثة الأخرى في بعض مكاتباتي من الشعر :

خفض على نفسك ما تلاقـي　　من برحات الوجد والإشفاق
ولا تثنـي ركـائـب التـلاقـي　　بحسن عـون القـادر الخـلاق
فلتـرغبـوه فـهـو خيـر واق　　في اللطف والتيسير في انطلاق
وفي انفراج الضيق والخناق

وقلتُ أيْضاً في الأعياد التي أخذْناها في هذه الغَيْبة وركوبنا في البحر ودخولنا اصطنبول وخروجنا منها :

وعيد لفطر صرت في الفلك راكبا ... يعالجنا ريح وموج شديد
وما كنت قبل قط في البحر راكبا ... وكاد قرى أضيافه أن يميد
وقائلة لي في طرابلس إذ أنا ... غريب كئيب مستهام بعيد
تسلَّ وخذ للعيد حظ سروره ... فما العيد إلا بالسرور يعود
فقلت لعل الله يجمع شملنا ... بدرعة يوما ما فذلك عيد
وما العيد إلا أن أجالس إخوتي ... وأهلي هناك ، ذاك عيد سعيد
أزل من سنى ألفه نُقضى لهجرة ... ثلاثا فأضحى قبلهن عيد عتيد
أواخر عاشوراء كان ورودنا ... قسطنطينية العظمى ونعم ورود
بعام رست حط ومنها خروجنا ... بشعبان كان والهلال جديد
بسوسة عيد الفطر بعد رجوعنا ... من الترك كان وهو عيد حميد
وعيد الأضاحي بالجزائر مؤذن ... بقرب انقضاء البين وهو مديد

وقلت أيضا مخاطبا رفيقنا ، سيدي محمد بن علي الكاتب مهنئا له بولدين توأمين ولدتهما له مملوكة رومية في ثغر الجزائر في رجوعنا للمغرب .

سلام على مولى الكتابة من أخ ... له عندنا ودّ وغاية إجلال
هنيئاً بالابنَين السعيدَيْن مُتِّعا ... جميعاً بطول العُمْر في عزّ إقْبال
أبي فارس عبد العزيز وصنوه ... أبي سالم في اسميهما أفضل الفال
هما سيدان بارك الله فيهما ... ينالان كل المجد والسؤدد العالي
فلا زالَ حفظُ الله يكلأ دائماً ... حمى توأميك كل صبح وآصال
وقرت بما أملت عيناك فيهما ... من الدين والدُّنْيا وصالح أعْمال
فأنبتهما الله أحسن منبت ... على حالة تفي بإدراك آمال

رجوت من اللـه الكريـم سلامـة وعافية ثـم اجتماعـا مـع الآل
بجاه رسـول اللـه صلـى وسلمـا عليْـه وحرمـة الصحابـة والآل

وكنا خرجنا في أثناء إقامتنا بتيطاوان إلى بستان الأبر المفضل وفيه مغنى مبني مشرف على الرياض ، فجلسنا في علوه وتحته بيت للنصارى خدمة البستان ، وهم لا ينفكون عن الشراب ولا يفارقونه . فقال الكاتب ارتجالا ونحن هناك :

وبسيط يطـرز النهـر فـي جـا نبـه بـرد خـزه ووشاحـه
قد نعمنا بنزهة كـان فيهـا بيت راح وفوقـه بيـت راحـه
فـي ريـاض تبسـم الزهـر لمـا أطلع الياسمين فيهـا صباحـه
وتغنت أم الحسين على عيدانـهـا بالحسيس شعـر الفصاحـة

وكـانَ ذلك يَوْمَ الأرْبعـاء ثاني عَشَـرَ رَجَب الفَـرْد عـامَ ثمـانيـة وتسعـين وتسعمائة[1] ويسمى هذا الرياض الصوير.

❦ ❦ ❦

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه على يد كاتبه محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي ثم البكري نسبا ، الدرعي دارا ومنشأ ، غفر الله له ولوالديه ولأشياخه وقرابته وللمحبين له ولأهله وللمومنين والمومنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات . وكان الفراغ منه بعد العصر من يوم الأحد التاسع والعشرون صفر عام 1128[2] عرفنا الله خيره ووقانا شره ، آمين .

---

1) يوافق يوم 17 مايه 1590.
2) يوافق يوم 23 فبراير 1716.

فهارس النفحة المسكية

رتبنا فهارس الأعلام البشرية والجغرافية الواردة في نص النفحة وفق الشروط التالية :

- اعتمدنا في الترتيب على اسم الشهرة ؛ وهكذا رتبنا "أبا الحسن الشاذلي" في حرف الشين ومحمد بن عرفة في حرف العين . فإن لم يكن للعلم اسم شهرة رتبناه حسب اسمه الشخصي. ورتبنا الملوك والأمراء تحت اسم أسَرِهِمْ ؛ فأدرجنا هارون الرشيد والمأمون في "العباسيين" وأحمد المنصور الذهبي في "السعديين".

- لم نأخذ بعين الاعتبار الأب والإبن ، إلا إذا جاءت ملتصقة بالإسم .

- احتفظنا في أسماء الشعوب والقبائل ببني ، فرتبنا بني حفص في حرف الباء .

- رتبنا أسماء البحار في حرف الباء والجبال والجزر في حرف الجيم والأودية في حرف الواو .

فهرس الأعلام البشرية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأعلام الجغرافية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

فهرس المؤلفات الوارد ذكرها في المتن

حرف الألف

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الراء

حرف الشين

حرف الصاد

حرف العين

حرف الفاء

حرف الكاف

حرف الميم

فهرس المصطلحات التقنية والألفاظ الأجنبية

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف السين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

فهرس عام

تحت الطبع

انبعـاثُ أمَّـة

الجزء السابع والأربعون (القسم الثاني)

* * *

الوثـائق

المجموعة الحادية عشرة

* * *

المختار

مما قيلَ في رثاء جلالة الملك الحسن الثاني من الأشعار

* * *

ذاكرةُ مَلك

ذكريات جلالة الملك المرحوم الحسن الثاني

* * *

الإعلام ، بمَن حَلَّ مُرّاكشَ وأغماتَ من الأعْلام

الجزء الحادي عشر (خاص بالفهارس)



رقم الإيداع القانوني : 1763 / 2002

ردمك : 8 - 48 - 905 - 9981